تاريخ مدينة دمشق

وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها

تصنيف

الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي

المعروف بابن عساكر

٤٩٩ هـ - ٥٧١ هـ

دراسة وتحقيق

محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي

الجزء الأول

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م

ⓒ عمر بن غرامة العمروي ، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

إبن عساكر ، علي بن الحسن بن هبة الله
تاريخ مدينة دمشق/ تحقيق عمر بن غرامة العمروي .
... ص ؛ .. سم
ردمك ٥-٠٠-٨٠٩-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-١٠-٨٠٩-٩٩٦٠ (ج ١)
١- السيرة النبوية ٢- الصحابة والتابعون ٣- التاريخ الإسلامي ٤ - دمشق - تراجم أ- العمروي ، عمر بن غرامة (محقق) ب - العنوان

ديوي ٩٢٠,٠٥٦٥٣١ ١٥/١٣٢٣

رقم الإيداع : ١٥/١٣٢٣
ردمك : ٥-٠٠-٨٠٩-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-١٠-٨٠٩-٩٩٦٠ (ج ١)



بيروت - لبنان

دار الفكر : حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا : فكسي - تلكس : ٤١٣٩٢ فكر
ص.ب : ١١/٧٠٦١ - تلفون : ٦٤٣٦٨١ - ٨٣٨٠٥٣ - ٨٣٧٨٩٨ - دولي : ٨٦٠٩٦٢
فاكس : ٠٠١ ٢١٢٤١٨٧٨٧٥

اهداء

إلـــى

مهد الحضارات الإنسانية وملتقى الديانات السماوية

إلى أبنـــاء العروبـــة والإســـلام

إلى أقدم مدينة في التاريخ

إلى دمشق أم الشام

نهدي انتاجنا



تصدير

أهمية التاريخ:

إذا كان التاريخ سردًا لماضي الإنسانية، وسجلاً لمجرى الحوادث الذي يصنعه الأبطال والشعوب فإن التاريخ الكبير تاريخ دمشق لمحدث الشام ومؤرخها الحافظ ابن عساكر هو النور الساطع واللؤلؤة المضيئة بين كتب التاريخ. الذي يؤرخ لأعرق مدينة في التاريخ بل إنها جنة الأرض ومدينة العلم والفضل والحضارة أم الشام، يُشدّ إليها الرحال بما زخرت به من المدارس وحلقات العلم في كل فن وعلم، وبما أنجبت من علماء وفرسان أعلام في كل حلبة من حلباتها.

لقد دأبت دار الفكر وديدنها منذ تأسيسها بعث أسفار التراث من شتى العلوم والفنون وإخراجها وبسطها للناس للاستفادة من كنوز الأجداد واستخلاص العبر منها.

ومنذ عشرين عاماً وعند اطلاعنا على المجلد الذي حققه الاستاذ الدكتور شكري فيصل من تاريخ دمشق أثار لدينا حلماً دفيناً وأمنية من أعظم أمانينا، فقد كنا نحلم بتحقيق وإخراج هذا الكتاب وفاءً منا لهذه المدينة العظيمة الذي كان لها دور مميز في كل عصر من عصور التاريخ. فعرضنا على الدكتور رحمه الله أن نكمل الطريق معاً بإحياء هذا الأثر التاريخي النفيس وذلك بتحقيق بقية أجزاء الكتاب الثمانين، ولكن الدكتور رحمه الله أشفق علينا وقال: وأنى لنا ذلك؟! والكتاب بحر زخّار عميق الغور تقصر عن جمعه وإنجازه وتحقيقه همم الرجال لعدم اكتمال مخطوطاته في مكان واحد من جهة، ولحاجته إلى سيل فياض لتغطية أعبائه المادية ونفقات إخراجه من جهة ثانية، وهو بهذا يحتاج لرعاية دولة وليس لدار نشر؟

ولكن كما قال الشاعر العربي:

* على قدر أهل العزم تأتي العزائم *

وكان مما أثار حماسنا أنه أثناء المؤتمر الذي عقد في دمشق بمناسبة مرور ٩٠٠ سنة على وفاة مصنفه الحافظ المحدث الثقة ابن عساكر ومن المناقشات التي دارت في المؤتمر لمسنا أنه لا أحدَ مهيؤٌ لإنجاز هذا المشروع الكبير الذي بدأه المجمع العلمي العربي بدمشق منذ أربعين عاماً، ولم ينجزه لأسباب شتى.

ولما شاء الله وأراد لهذا الكتاب الخروج إلى النور، التقينا بالأخ الشيخ عمر العمروي في الرياض، وتعرضنا فيما بحثنا معه من أعمال مشتركة إلى الحديث عن تاريخ ابن عساكر، ورغبتنا في انجازه وإخراجه للناس.

وكانت المفاجأة التاريخية العظيمة وهي أن الشيخ عمر العمروي له نفس تطلعاتنا، وقد جمع معظم مخطوطاته، وعمل فيه ثم توقف، فعقدنا العزم معاً على أن نكون وإياه يداً واحدة في سبيل تحقيق هذا المشروع الجبار، وإخراجه للناس كافة، وتم لنا ذلك بفضل الله وتوفيقه، فلله الحمد أولاً وآخراً ونسأله التمام والكمال.

ومصنف الكتاب الحافظ ابن عساكر سليل أسرة عربية اشتهرت بالعلم والفقه والحديث والقضاء والفتيا.

بلغ قمة العلم وتبوأ مرتبة الحفاظ والمحدثين، يقول: **متى أروي ما سمعت؟!** لكنه لا يجرؤ على ذلك قبل أن يأذن له شيوخه، فقال له جدُّه، يحيى بن علي القرشي: اجلس إلى سارية من هذه السواري حتى نجلس إليك!

أما أعيان شيوخه ورؤساء البلد فكلهم قالوا له: من أحق بهذا منك؟!

قال الحافظ: فجلست في ذلك منذ ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

وهنا تبدأ حقبة جديدة من حياة الحافظ تمتد أربعين عاماً ينصرف فيها إلى الجمع والتصنيف والرواية والتأليف والمطالعة والتسميع، ويشتهر أمره ويطير ذكره في الآفاق، فيرحل إليه الطلبة كما رحل هو من قبل إلى شيوخه، وتنتهي إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان والمعرفة التامة بالحديث متوناً وأسانيد، ويصبح إمام الحديث في عصره، وفارساً في ميدانه.

ثم كان دخول نور الدين زنكي إلى دمشق عام (٥٤٩) وهو قائد الجهاد ضد الصليبيين. وهذه الحقبة من التاريخ نشط فيها العلم والجهاد في آن، ورقي خبر ابن عساكر إلى نور الدين، يقول الحافظ في خطبة كتابه: **ورقي خبر جمعي له** (أي لتاريخ دمشق) **إلى الملك العادل... وبلغني تشوقه إلى استنجازه والاستتمام فراجعت العمل به راجياً الظفر بالتمام.**

وقد بنى له نور الدين داراً لتعليم الحديث سُميت فيما بعد دار الحديث النورية وهي أول مدرسة أنشئت في الإسلام لتعليم الحديث وتولى التدريس فيها الحافظ ابن عساكر نفسه وابنه ثم بنو عساكر من بعدهما، وكان نور الدين يحضر حلقات التدريس له فيها، كما كان السلطان صلاح الدين يحضر مجلسه ودروسه أيضاً.

وقد تخرج من المدرسة النورية هذه وأخذ عن شيوخها كبار العلماء والمؤرخين والمحدثين في القرنين السادس والسابع للهجرة، كابن الأثير الجزري والمقدسي والمزي وابن كثير والنووي والذهبي والحسيني وابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم.

ومن مؤلفاته ووفرتها وتنوعها نجد أن ابن عساكر محدث، حافظ، ثبت، ثقة أولاً، ومؤرخ ثانياً، شأنه في ذلك شأن سائر المؤرخين المسلمين.

ولا جرم أن أكبر تآليفه وأكثرها ذيوعاً وشمولاً كتابه تاريخ دمشق.

وأهمية هذا التاريخ لا تكمن في أنه تاريخ لمدينة دمشق أحد أكبر معاقل الحضارة الإنسانية والعلوم الإسلامية عبر مختلف العصور فحسب، بل إنه موسوعة حديثية وهو من أوسع المصادر في سير الرجال فمنه يمكن استخلاص كتب وأسفار عدة في موضوعات وعلوم وفنون شتى.

فالكتاب مرجع لعلماء الحديث لاحتوائه على الآلاف من الأحاديث النبوية والآثار.

والكتاب موسوعة في علم الرجال والجرح والتعديل، فهو عندما يترجم للرجال ويذكر سيرهم ويذكر مروياتهم فإنه يبين حالهم وعلى ما هم عليه من ضعف أو توثيق، ويصحح أسماءهم إذا اقتضى الحال.

ويذكر سنة الوفاة للرجال، وهو بهذا يحدّد طبقة الاسم المترجم له، وفي هذا من الفائدة ما يدركه العاملون في حقل الرجال.

وهو عندما يسرد الخبر خصوصاً في الفضائل يسرد جميع الروايات بأسانيدها المتعلقة بالخبر، يذكر ذلك وهو أعلم الناس بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، فكأنه بإيراده السند يخلي مسؤوليته ويدع العهدة في نقل الأخبار على من نقلها، وكأنه يريد أن يقول أيضاً: إن كتابه لجميع طبقات الناس، وإنه يريد أن يكون تاريخه مرآة تعكس حياة الناس ومعتقداتهم ومذاهبهم ونحلهم وآراءهم السياسية والاجتماعية، فله النقل والعرض والسرد وللعقل التدقيق والتمحيص. وكأنه هنا يلتقي مع نظرية معاصرة في تدوين التاريخ لأرنولد توينبي التي تزعم «أن المؤرخين أميل إلى توضيح آراء الجماعات التي يعيشون في محيطها منهم إلى تصحيح الآراء».

والكتاب جمع أكبر عدد من رجال الثقافة الإسلامية وأعلام الحضارة العربية خصوصاً ذوي الشأن منهم وحتى ترجم لمن كان قبل الإسلام أيضاً.

والكتاب موسوعة في الأدب شعراً ونثراً، فضلاً عن كون الحافظ ابن عساكر نفسه شاعراً وأديباً وله قصيدة في مدح نور الدين بعد أن رفع عن أهل دمشق المطالبة بالخشب، فيها:

لمّا سمحت لأَهل الشام بالخشب   عُوّضت مصرَ بما فيها من النَّشبِ
وإن بذلتَ لفتح القدس محتسباً   للأجر جُوزيت خيراً غير محتسبِ
ولست تُعذر في ترك الجهاد وقد   أصبَحْتَ تملكُ من مصرَ إلى حلبِ

وكان يختم مجالسه بقطعة من شعره.

وهو عندما يؤرخ لمدينة دمشق تخصيصاً لا يقتصر على الجانب التاريخي بل يتعدّاه إلى جغرافية المدينة لأنه أدرك بحس العالم وحس المؤرخ أنه لا انفصام بين التاريخ والجغرافيا، فالجغرافيا هي المسرح التي تحدث عليه وقائع التاريخ وهي من أهم المؤثرات التي تؤثر في الإنسان وبالتالي في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية.

وإذا كان تاريخ الطبري يُعد أغنى المصادر عن تاريخ الفرس، فإن تاريخ ابن عساكر أغنى المصادر عن تاريخ العرب المسلمين من نقطة الإنطلاق الأولى وعلى امتداد الرقعة الجغرافية التي وصل إليها الإسلام خصوصاً في الحقبات التاريخية التي كانت دمشق عاصمة الحياة العربية، ومصدر القرار، ومحجة وفود الجماعات والرجالات من الجزيرة والعراق وفارس وما وراء النهرين وأقصى الشرق، ومصر وإفريقية وأطراف المحيط، كما كانت مركز تجمع ومنطقة حشد وقاعدة عمليات للجيوش التي وصلت شرقاً حتى حدود الصين وغرباً حتى اجتازت المحيط وعبرت إلى إسبانيا وجنوب أوربة.

أليس من دمشق كانت تنطلق قوات الصوائف والشواتي لسد الثغور والدروب ورد غارات بيزنطة عن حدود الشام؟!

ومن دمشق انطلقت جحافل صلاح الدين لطرد الصليبيين وتحرير القدس.

ومن دمشق أيضاً انطلق الإمام ابن تيمية رافعاً لواء التجديد داعياً إلى محاربة البدع والضلالات.

كما لم تكن دمشق بمعزل عن الحياة والمشاركة فيها في كل العهود.

وتاريخ دمشق يقدم مادة غنية للذين يدرسون التاريخ الأندلسي.

ألم تنتقل الخلافة الأموية إلى الأندلس؟!

كل ذلك يؤكد أن تاريخ دمشق هو تاريخ حضاري للعالم العربي والإسلامي منذ ما قبل البعثة النبوية وحتى عصر المؤلف الذي يقف عند سنة ٥٧١[١]. وكأن الحافظ ابن عساكر أراد أن يؤرخ للعالم العربي والإسلامي على امتداد رقعته الجغرافية شرقاً وغرباً من خلال تلك المشكاة المشعة دمشق الشام فكان بتاريخه الكبير الموسوعي الفذ شيخ المؤرخين ومؤرخ الحفاظ والمحدثين.

ختاماً من عصر الحافظ ابن عساكر وهو عصر الجهاد وعصر النهضة العلمية ومن خلال موسوعته تاريخ دمشق ندرك كيف استطاعت هذه الأمة تخطي محنتها بالصمود وبالقوة الحيوية الكامنة فيها وطرد الصليبيين وتحرير القدس ثالث الحرمين الشريفين ومحرك الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

ومع كل ما بذلناه من جهد وصبر وتحمل لإخراج هذه الموسوعة التاريخية العربية إلى الضوء نشعر بالتقصير، وفرحتنا الكبرى تكتمل يوم يكتمل عقد هذا السفر العظيم بأجزائه الثمانين.

وجدير بنا أن نردد هنا، وبعد تسعة قرون، ما قاله الحافظ في خطبة كتابه يوم ألف تاريخه: **فمن وقف فيه على تقصير أو خلل، أو عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه متطولاً، وليصلح ما يحتاج إلى إصلاح متفضلاً**.

ونحن نردد وراءه:

وإنْ تجدْ عيباً فسُدّ الخللا ... فجلّ من لا عيب فيه وعلا

اللهم زدنا علماً ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. واجعلنا ربنا خيراً مما يظنون واغفر لنا ما لا يعلمون ولا تؤاخذنا بما يقولون وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

بيروت ١٢ محرم ١٤١٦ هـ.

١٠ حزيران (يونيه) ١٩٩٥م.

دار الفكر

(١) بينما يقف تاريخ بغداد عند سنة ٤٦٣.

مقدمة التحقيق

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمَّد رسوله ونبيّه أرسله بالهدى، وعلى آله وصحبه الذين ازداد بهم الحق إشراقاً، والخير انتظاماً واتساقاً. أما بعد.

الفصل الأول

فإن دراستنا هنا تنقسم إلى فصلين:

الأول: ترجمة المؤلف من مولده إلى وفاته.

الثاني: تاريخ مدينة دمشق، عملنا ومنهجنا في التحقيق.

ترجمة ابن عساكر

اسمه ومولده وحياته:

هو علي بن الحسن بن هبة اللّه بن عَبْد اللّه بن الحسين، أَبُو القاسم الدمشقي الشافعي، المعروف بابن عساكر.

ولد في المحرم، في أول الشهر، سنة تسع وتسعين وأربعمئة، في مدينة دمشق.

أخذ العلم والفقه منذ الحداثة بدمشق حيث عاش في بيت جليل، وقد كان أبوه الحسن بن هبة اللّه شيخاً صالحاً[1] عدلاً، محبّاً للعلم، مقدِّراً للعلماء، مهتماً بأمور الدين والفقه.

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٧٠.

يقول د. صلاح الدين المنجد في مقدمة المجلدة الأولى من تاريخ ابن عساكر[١] :

«كان للبيئة التي نشأ فيها الحافظ ابن عساكر أثر كبير في اتجاهه نحو العلم ونبوغه فيه، فقد نبت في بيت قضاء وحديث وفقه، وكان ألآف هذا البيت من كبار علماء دمشق وقضاتها[٢]، فما رأى ابن عساكر منذ نشأته غير العلماء، وما وعى غير العلم.

وكان أخوه الأكبر صائن الدين هبة اللّه[٣] بن الحسن، فقيهاً مفتياً محدثاً، قرأ القرآن بالروايات، وتفقّه وبرع ورحل فسمع، وقرأ الأصول والنحو، وتقدّم، وسمع الكثير، وأعاد بالأمينية لشيخه أَبي الحسن السلمي، ودرّس، وأفتى وكتب الكثير، وكان إماماً ثقة ثبتاً ديِّناً ورعاً[٤].

سمع أبا القاسم النسيب، وأبا طاهر الحنائي، وأبا الحسن بن الموازيني، وأبا علي بن نبهان، وأبا عَلي بن مهدي، وأبا الغنائم المهتدي باللّه، وأبا طالب الزينبي. ولد سنة ٤٨٨ ومات في شعبان سنة ٥٦٣.

وأما أخوه مُحَمَّد بن الحَسَن بن هبة، أَبُو عَبْد اللّه، كان قاضياً[٥]، وقد نشر أولاده الستة العلم والحديث[٥].

وكانت أمه من بيت القرشي، أبوها يَحْيَىٰ بن علي بن عَبْد العزيز، القاضي الفقيه الكبير، وكان عالماً بالعربية، ثقة، حلو المحاضرة فصيحاً[٦].

سمع عَبْد العزيز الكتَّاني، والحَسَن بن علي بن البري، وحيدرة بن عَلي، وعَبْد الرزَّاق بن الفضيل، وأبا القاسم بن أَبي العلاء، وارتحل إلى بغداد فسمع بها وتفقه على أَبي بكر الشاشي، وبدمشق على القاضي المروزي والفقيه نصر[٧]. وقد سمع منه وروى عنه نافلته أَبُو القاسم بن عساكر.

---

(١) تاريخ ابن عساكر المجلدة الأولى: ص ١١.

(٢) أبوه الحسن كان قد صحب نصراً المقدسي وسمع منه، انظر طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٧٠.

(٣) انظر ترجمته في طبقات السبكي ٧/ ٣٢٤ سير الأعلام ٢٠/ ٤٩٦ وفيات الأعيان ٢/ ٤٧٣ فوات الوفيات ٤/ ٢٣٥ النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٠ شذرات الذهب ٤/ ٢١٠.

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣٢٥ وسير الأعلام ٢٠/ ٤٩٦.

(٥) طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٧٠.

(٦) سير الأعلام ٢٠/ ٦٤.

(٧) سير الأعلام ٢٠/ ٦٣ ـ ٦٤ طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

وأما خاله أَبُو المعالي مُحَمَّد بن يَحْيَىٰ، فقد سمع أبا القاسم بن أَبي العلاء، والحَسَن بن أَبي الحديد، والفقيه نصر المقدسي، وأبا مُحَمَّد بن البري، والقاضي الخِلَعي بمصر، وعلي بن عَبْد الملك الدبيقي بعكا، وحضر درس الفقيه نصر، وتفقه به.

ناب عن أبيه في القضاء، ثم استقل به، وكان نزيهاً عفيفاً صليباً في الحكم(١).

قال عنه السمعاني أنه كان محموداً، حسن السيرة شفوقاً وقوراً، حسن المنظر، متودداً(٢).

روى عنه ابن أخته أَبُو القاسم بن عساكر.

وأمّا خاله الآخر سلطان بن يَحْيَىٰ، زين القضاة، أَبُو المكارم القرشي الدمشقي، فقد روى عن أَبي القاسم بن أَبي العلاء، ناب في القضاء عن أبيه، ووعظ وأفتى(٣).

بدأ بتلقي علومه ودروسه باكراً، وهو في سن صغيرة، فقد سمعه أخوه الصائن سنة خمس وخمسمئة(٤)، فقد كان في السادسة من عمره يومذاك، فأخذ يسمع باعتناء أبيه وأخيه الصائن، فسمع أبا القاسم النسيب، وقوام بن زيد، وسُبيع بن قيراط، وأبا طاهر الحنائي، وأبا الحَسَن بن الموازيني(٥).

وراح يتردد إلى مجالسهم ويحضر حلقات تدريسهم.

يقول د. المنجد في مقدمة المجلدة الأولى(٦):

فبيئة هذا شأنها.. فقد وجد فيها الحافظ ما ساعده على تفتُّح ذكائه وإقباله على ما رغب فيه، حتى غدا مؤرِّخ الشام وحافظ العصر.

تفقه في حداثته بدمشق على الفقيه أَبي الحَسَن علي بن المُسَلّم بن مُحَمَّد بن علي

---

(١) سير الأعلام ٢٠/ ١٣٨.
(٢) التحبير ٢/ ٢٥٠.
(٣) شذرات الذهب ٤/ ٩٥.
(٤) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٢٨ سير الأعلام ٢٠/ ٥٥٤.
(٥) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٢٨.
(٦) تاريخ ابن عساكر المجلدة الأولى ص ١٤.

السلمي[١] عمدة أهل الشام ومفتيهم، وكان قد لازم الغزالي مدة مقامه بدمشق، وقد نقل ابن عساكر عن الغزالي قوله في أبي الحَسَن السلمي: خلّفت بالشام شاباً إن عاش كان له شأن، فكان كما تفرّس فيه، ودرّس بحلقة الغزالي مدة، ثم ولي التدريس في المدرسة الأمينية[٢] في سنة أربع عشرة وخمسمئة، وهي أول مدرسة للشافعية بنيت في دمشق.

وكان السلمي ثقة ثبتاً عالماً بالمذاهب والفرائض، وكان ابن عساكر يتردد عليه ويحضر دروسه في المدرسة الأمينية ويستمع عليه.

رحلة ابن عساكر الأولى إلى بغداد:

وفي سنة ٥٢٠هـ وكان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره، وكان قد استوفى قسطاً مهماً من العلم على شيوخه بدمشق، وتنوعت معارفه، واتجه نحو رواية الحديث حيث جمع من معرفة المتون والأسانيد وحفظ فأتقن، وقرأ فتثبّت، وتعب في ملاحقة المحدِّثين والعلماء، ولم يعد يقنعه ما حصل عليه في حلقات دمشق ومساجدها ومدارسها وعلمائها[٣]، عزم على طلب المزيد والوقوف على آراء مشاهير العلماء والفقهاء فقرر أن يرحل عن دمشق رغبة في طلب الحديث.

يقول د. المنجد في مقدمة المجلدة الأولى[٤]: وكانت الرحلة في طلب الحديث والاستماع إلى الشيوخ أمراً ذا شأن، ولم يتخلف محدِّث كبير عن الرحلة ليتم علمه، ويتلقى الأسانيد العالية.

وكانت مراكز العلم منتشرة في طول العالم الإسلامي وعرضه، والعلماء والفقهاء منتشرون في كافة الأصقاع، ولكن الإشعاع كان ينتشر من مراكز استطاعت أن تستقطب أهل العلم والحديث والرواية، واشتهرت فيها حلقات التدريس والنقاش في مراكزها العامة كالمدارس والمساجد، وفي مراكزها الخاصة كمقرات إقامة الفقهاء والعلماء والمحدثين.

---

(١) انظر سير الأعلام ٢٠/ ٣٠.
(٢) الدارس للنعيمي ١/ ١٣٤.
(٣) تاريخ دمشق السيرة النبوية قسم ١ المقدمة ص: هـ.
(٤) المجلدة الأولى من تاريخ دمشق: ص ١٦.

وكانت بغداد جنّة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع[١].

ورغم تدني نفوذها السياسي إلى مستوى كبير، فقد حافظت على دورها الاستقطابي والمحوري، حيث بقيت المركز الأساس الذي يجذب طلبة الحديث، والفقه، والعلوم، ولم تستطع أي من المراكز الأخرى في مصر، ومكة، والمدينة، وخراسان، ونيسابور، وأصبهان، ومرو، وهراة، وسرخس، وطوس، أن تنال من أهمية بغداد ودورها.

وقد عُرِف عن أهل بغداد أنهم أرغب الناس في طلب الحديث، وأشدهم حرصاً عليه، وأكثرهم كتباً له.

ويقول الخطيب[٢]: وأهل بغداد موصوفون بحسن المعرفة، والتثبّت في أخذ الحديث وآدابه وشدة الورع في روايته، اشتهر ذلك عنهم وعُرفوا به.

ورحل أَبُو القَاسِم بن عساكر إلى بغداد سنة ٥٢٠هـ[٣]، وذهب من بغداد إلى الحج سنة ٥٢١هـ فسمع بمكة ومنى والمدينة، وممن سمع بمكة: عَبْد اللّه بن مُحَمَّد المصري الملقّب بالغزَّال بمكة، وعَبْد الخلّاق بن عَبْد الواسع الهروي بمكة، وحدَّث بمكة ومنها قفل عائداً إلى بغداد[٤].

ولما دخل بغداد أُعجب به العراقيون، وقالوا: ما رأينا مثله، وقال شيخه أَبُو الفتح المختار بن عَبْد الحميد: قدم علينا هذا فلم نر مثله[٥].

وأقام ببغداد خمسة أعوام يُحصِّل العلم، فسمع من هبة اللّه بن الحُصَين، وعلي بن عَبْد الواحد الدينوري، وقراتكين بن أسعد، وأَبي غالب بن البناء،

---

(١) معجم البلدان: بغداد ١/ ٤٦١.
(٢) تاريخ بغداد ١/ ٤٣.
(٣) اتفقت مصادر ترجمته على أن رحلته الأولى إلى بغداد كانت سنة ٥٢٠.
(٤) يقول د. المنجد في مقدمة المجلدة الأولى ص ١٧: وأقام الحافظ في بغداد سنة واحدة، ثم عاد إلى دمشق ولم يلبث أن عاد إليها يريد الحج عن طريقها، لكنه لم يدعم قوله بأي حجة وبيّنة.
(٥) طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٢١٧.

وهبة اللّه بن أَحْمَد بن الطبري، وأبي الحَسَن البارع، وأَحْمَد بن ملوك الورّاق، والقاضي أبي بكر(١).

وسمع بالكوفة الشريف أبا البركات عمر بن إبراهيم الزيدي، وطوّف وجاب العراق ولقي المشايخ، ثم عاد إلى بغداد فأقام بها يسمع الحديث(٢)، ولزم به التفقّه وسماع الدرس بالنظامية، وقرأ الخلاف والنحو(٣).

وكان ببغداد يسمى شعلة نار من توقده وذكائه وحسن إدراكه، لم يجتمع في شيوخه ما أجتمع فيه(٤).

وعلى هذا النحو لازم ابن عساكر بغداد، متتبعاً العلماء والفقهاء وكبار المحدِّثين، مستمعاً إليهم، قارئاً عليهم، مُكثراً في ملازمتهم، حتى سنة خمس وعشرين وخمسمئة وقد استنفذ ما عند الشيوخ من أحاديث، بالغ في طلبها منهم فأتقن حفظها، وتلقى متونها وأسانيدها، فقرر العودة إلى دمشق، وفعلاً عاد إلى دمشق سنة ٥٢٥هـ ليسمع على شيوخها.

رحلته الثانية: إلى بلاد العجم:

وبقي أَبُو القَاسِم بن عساكر في دمشق مدة ملازماً علمائها وفقهائها وكبار محدِّثيها مكثفاً الطلب منهم، متعشقاً لرواية الحديث عليهم، حتى غدا حافظاً فهماً متقناً بصيراً بهذا الشأن، لا يلحق شأوه ولا يُشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه وهو بعد شاب في مقتبل العمر، وبقي إلى سنة تسع وعشرين وخمسمئة حيث عزم على التوجّه إلى مراكز ازدهر فيها علم الحديث، وانتشر فيها الفقهاء والعلماء والمحدِّثون فكانت رحلته نحو الشرق، نحو بلاد العجم، فارتحل إليها وطاف في مراكزها ومدنها، وبالغ في طلب الحديث فيها على كبار شيوخها ومحدِّثيها، فسمع بأصبهان، ونيسابور، ومرو، وتبريز، وميهنة، وبيهق، وخسروجرد، وبسطام، ودامغان، والري، وزنجان، وهمذان،

(١) سير الأعلام ٢٠/ ٥٥٥، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي: ص ١٨٧.

(٢) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي: ص ١٨٧.

(٣) مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ٢/ ٣١٨، وابن الدمياطي: ص ١٨٧، وطبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٢١٧.

(٤) طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٢١٨.

وأسداباذ، وجـيّ، وهراة، وبون، وبغ، وبوشنج، وسرخس، ونوقان، وسمنان، وأبهر، ومرند، وخويّ، وجرباذقان، ومشكان، وروذراور، وحلوان، وأرجيش[١].

وكان توجهه إلى بلاد خراسان على طريق أذربيجان، والتقى في نيسابور بالسمعاني، وفيه يقول: أَبُو القاسم كثير العلم غزير الفضل حافظ متقن، ديِّن، خير، حسن السمت، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت محتاط... إلى أن قال: جمع ما لم يجمعه غيره، وأربى على أقرانه، دخل نيسابور قبلي بشهر، سمعت منه، وسمع مني، .. وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق، ثم كانت كتبه تصل إليّ وأنفد جوابها[٢].

وسمع بنيسابور أبا عَبْد اللّه الفراوي ولازمه فترة، وفي ذلك يقول الفراوي: قدم ابن عساكر فقرأ عليّ ثلاثة أيّام فأكثر وأضجرني، وآليت على نفسي أن أغلق بابي، فلما أصبحنا قدم عليّ شخص فقال: أنا رسول رَسُول الله ﷺ، قلت: مرحباً بك، فقال، قال لي في النوم: امض إلى الفراوي وقل له: قدم بلدكم رجل شامي أسمر اللون يطلب حديثي فلا تملّ منه[٣].

قال القزويني: فوالله ما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ.

ولم تقتصر رحلته وطوافه في بلاد خراسان على الدرس والتلقّي والسماع؛ إنما حدَّث في أصبهان ونيسابور، وسمع منه جماعة من الحفّاظ ممن هو أسن منه[٤].

ودامت رحلته في بلاد العجم أربع سنوات[٥] قضاها في ملازمة العلماء والفقهاء، والمحدِّثين، متتبعاً الحديث معتنياً بطرقه ورواته ورواياته وأسانيده، فتعب في جمعه، وبالغ في طلبه حتى أنه جمع ما لم يجمعه أحد.

وعاد إلى بغداد ومنها قفل إلى دمشق، ويلخص أَبُو القَاسِم مشواره مع طلبه الحثيث للحديث بقوله:

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢١٦.
(٢) سير الأعلام: ٢٠/ ٥٦٧، تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٣٣٠.
(٣) تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٣٣٠، وتذكرة الحفّاظ للسبكي: ٧/ ٢١٩.
(٤) معجم الأدباء: ١٣/ ٧٦.
(٥) المجلدة الأولى من تاريخ دمشق، المقدمة للدكتور المنجد: ص ٢٢.

وأنا الذي سافرت في طلب الهدى سفرين بين فدافد وتنائف
وأنا الذي طوفت غير مدينة من أصبهان إلى حدود الطائف
والشرق قد عاينت أكثر مدنه بعد العراق وشامنا المتعارف
وجمعتُ في الأسفار كل نفيسة ولقيت كل مخالف وموالف[١]

هاتان الرحلتان إلى بلاد العجم وخراسان ومراكزها العلمية الكبيرة، وإلى العراق وبلاد الحجاز، سمحتا له بلقاء كبار الشيوخ وأعيان العلماء والفقهاء والمحدثين حيث سعى في التحصيل عليهم والإفادة منهم فحفظ وكتب الكثير، وقد التقى بأكثر من ألف وثلاثمائة شيخ، ومن النساء بضع وثمانين امرأة[٢].

يقول الذهبي في سير الأعلام[٣]: وعدد شيوخه في معجمه ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع، وستة وأربعون شيخاً أنشدوه، وعن مئتين وتسعين شيخاً بالإجازة، الكل في معجمه، وبضع وثمانون امرأة لهن معجم صغير سمعناه.

عودته إلى دمشق: مرحلة جديدة:

كان ابن أربع وثلاثين سنة لما عاد إلى دمشق، وقرر الاستقرار فيها وذلك بعد أن حقّق قدراً عالياً من بناء شخصيته العلمية والفقهية، وبعد أن ذاع صيته، وانتشرت أخباره، وتناقل العلماء أخبار فطنته وسعة حفظه وإتقانه، وتردد اسمه في مختلف الآفاق.

قال أَبُو المواهب[٤]: لم أَر مثله ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصفّ الأول إلاّ من عذر، والاعتكاف في شهر رمضان، وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك، وبناء الدور، قد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد

(١) الأَبيات في كتابه تبيين كذب المفتري: ص ٤٣١.
(٢) معجم الأدباء: ١٣/٧٦، وتذكرة الحفّاظ: ٤/١٣٢٨.
(٣) سير الأعلام: ٢٠/٥٥٦.
(٤) تذكرة الحفّاظ: ٤/١٣٣٢.

أن عرضت عليه، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم.

قال لي: لما عزمت على التحديث والله المطّلع أني ما حملني على ذلك حبّ الرياسة والتقدّم؛ بل قلت: متى أروي كل ما سمعت؟ وأي فائدة من كوني أخلفه صحائف؟ فاستخرت الله واستأذنت أعيان شيوخي ورؤساء البلد وطفت عليهم فكلهم قالوا: من أحقّ بهذا منك؟ فشرعت في ذلك منذ ثلاث وثلاثين وخمسمئة.

هذه المرحلة في حياة ابن عساكر، هي الأكثر سعة ورحابة، وقد امتدت على مدى عمره وفيها انتهت إليه رياسة المذهب، وبات ـ كما يقول عنه ابن النجّار: إمام المحدثين في وقته، ومن انتهت إليه الرياسة في الحفظ والإتقان، والمعرفة التامة بعلم الحديث، والثقة والنبل، وحسن التصنيف والتجويد[١]، وأخذ بعدما ملأته الثقة والاعتزاز بما حمله وحفظه، أخذ يُملي ويحدِّث ويصنِّف، حيث كان بارعاً في معرفة الحديث ومعرفة رجاله، وهذا ما جعله ينصرف بكلّيته إلى الالتزام بما قرره من التحديث والرواية. فانتهت إليه الرياسة كما أشرنا إلى ذلك قريباً.

يقول ولده بهاء الدين الحافظ أَبُو مُحَمَّد القاسم[٢]: قال لي أَبي: لمَّا حملت بي أمي رأت في منامها قائلاً يقول لها: تلدين غلاماً يكون له شأن... فإن الله تعالى يبارك لك وللمسلمين فيه.

وصدّقت اليقظة منامها، ونبهه السعد فأسهره الليالي في طلب العلم، وغيره سهرها في الشهوات أو نامها، وكان له الشأن العظيم الذي يجل عن التعظيم.

ثم انصرف إلى الجمع والتصنيف، والرواية والتأليف، وهذا يتطلب إلى جانب التزامه بالقيام بواجباته العبادية، تخلياً عن العمل لتحصيل الأملاك والمنافع وبناء الدور، إلى المواظبة على طاعة الله، وعدم التطلّع إلى أسباب الدنيا، وإعراضه عن المناصب الدينية كالإمامة والخطابة بعد أن عرضتا عليه[٣] وانكبّ على التصنيف،

---

(١) الطبقات الكبرى للشافعية للسبكي: ٧/ ٢١٨، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي: ص ١٨٦.
(٢) طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٢١٨، وسير الأعلام: ٢٠/ ٥٦٢.
(٣) طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٢١٨، تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٣٣٢.

فصنّف التصانيف المفيدة، وخرّج التخاريج، وكان حسن الكلام على الأحاديث، محظوظاً في الجمع والتأليف[١].

آثاره ومؤلفاته:

١ ـ إتحاف الزائر.
٢ ـ الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد، وهو أربعون حديثاً.
٣ ـ أربعون البلدان.
٤ ـ أربعون حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين مدينة.
٥ ـ الأربعون الطوال في ثلاثة أجزاء.
٦ ـ أربعون المساواة.
٧ ـ أربعون المصافحات.
٨ ـ الأحاديث الخماسيات وأخبار ابن أَبي الدنيا.
٩ ـ الأحاديث المتخيرة في فضائل العشرة في جزءين.
١٠ ـ أخبار أَبي عمرو الأوزاعي (وفضائله، عن معجم الأدباء).
١١ ـ الاشراف على معرفة الأَطراف في الحديث أربعة مجلدات.
١٢ ـ أمالي في الحديث.
١٣ ـ التاريخ الكبير لدمشق، مشهور، (وهو كتابنا).
١٤ ـ تاريخ المزّة.
١٥ ـ التالي لحديث مالك العالي (١٩ جزءاً).
١٦ ـ تبيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط.
١٧ ـ تبيين الامتنان بالأمر بالختان.
١٨ ـ تبيين كذب المفتري، فيما نسب إلى أَبي الحسن الأشعري.
١٩ ـ ثواب الصبر على المصاب بالولد.
٢٠ ـ جزء حديث الهبوط.
٢١ ـ جزء كفرسوسية (أحاديث جماعة من كفرسوسية).

(١) وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٠

٢٢ ـ الزهادة في بذل الشهادة في مجلد.
٢٣ ـ سباعيات في الحديث.
٢٤ ـ عوالي، شعبة في مجلد (إجابة السؤال في أحاديث شعبة).
٢٥ ـ عوالي الثوري، في مجلد.
٢٦ ـ عوالي مالك، في الحديث خمسين جزءاً.
٢٧ ـ غرائب مالك عشرة أجزاء.
٢٨ ـ فضل أصحاب الحديث.
٢٩ ـ فضل الجمرتين.
٣٠ ـ فضل الربوة.
٣١ ـ فضل عسقلان.
٣٢ ـ فضل مقام إبراهيم.
٣٣ ـ القول في جملة الأسانيد في حديث المؤيد.
٣٤ ـ كتاب الاعتزاز بالهجرة (إعزاز الهجرة عند إعواز النصرة. سير الأعلام).
٣٥ ـ كتاب السداسيات.
٣٦ ـ كتاب طرق حديث عَبْد اللّه بن عمر.
٣٧ ـ كتاب فضل مكّة.
٣٨ ـ كتاب فضل المدينة.
٣٩ ـ كتاب فضل بيت المقدس.
٤٠ ـ كتاب فضل قريش والأنصار والأشعريين وذم الرافضة.
٤١ ـ كتاب ذم قرناء السوء.
٤٢ ـ كتاب ذم من لا يعمل بعلمه.
٤٣ ـ كتاب أحاديث أهل صنعاء الشام.
٤٤ ـ كتاب أحاديث أبي الأشعث الصنعاني.
٤٥ ـ كتاب حنش والمطعم وحفص الصنعانيين.
٤٦ ـ كتاب يوم المزيد.
٤٧ ـ كتاب الخضاب.
٤٨ ـ كتاب المسلسلات.

٤٩ ـ كتاب المعجم لمن سمع منه وأجاز له .
٥٠ ـ فضل الكرام على أهل الحرم .
٥١ ـ كتاب أخبار أَبي مُحَمَّد سعيد بن عَبْد العزيز وعواليه .
٥٢ ـ كتاب في الصفات .
٥٣ ـ كتاب طرق قبض العلم .
٥٤ ـ كتاب فضائل الصّدِّيق .
٥٥ ـ كتاب ما وقع للأوزاعي في العوالي جزء .
٥٦ ـ كتاب الأبدال لم يتم .
٥٧ ـ كتاب العزلة .
٥٨ ـ كتاب كشف المغطى في فضل الموطّا .
٥٩ ـ كتاب حديث أهل قرية الحميريين وقبيبات .
٦٠ ـ كتاب حديث أهل فذايا وبيت أرانس وبيت قوفا .
٦١ ـ حديث أهل قرية البلاط .
٦٢ ـ كتاب حديث سلمة بن علي الحسني البلاطي .
٦٣ ـ كتاب حديث يسرة بن صفوان وابنه وابن ابنه .
٦٤ ـ كتاب حديث سعد بن عبادة .
٦٥ ـ كتاب حديث أهل رندين وجبرين .
٦٦ ـ كتاب حديث أهل بيت سواي .
٦٧ ـ كتاب حديث رومة ومسرابا والقصر .
٦٨ ـ كتاب حديث جماعة من أهل حرستا .
٦٩ ـ كتاب حديث أهل كفربطنا .
٧٠ ـ كتاب حديث أهل دقانيا وحجراء وعين توما وجديا وطرميس .
٧١ ـ كتاب حديث جماعة من أهل جوبر .
٧٢ ـ كتاب حديث يَحْيَـىٰ بن حمزة البتلهي وعواليه .
٧٣ ـ كتاب مجموع حديث مُحَمَّد بن يَحْيَـىٰ بن حمزة الحضرمي البتلهي .
٧٤ ـ كتاب حديث أَبي بكر بن مُحَمَّد بن رزق اللّه المنيني .
٧٥ ـ كتاب مجموع أحاديث جماعة من أهل بعلبك .

٧٦ ـ كتاب تكميل الإنصاف والعدل بتعجيل الإسعاف بالعزل.
٧٧ ـ كتاب الملتمس من عوالي مالك بن أنس ٣١ جزءاً.
٧٨ ـ كتاب رفع التخليط عن حديث الأطيط.
٧٩ ـ كتاب ذكر البيان في فضائل كتابة القرآن.
٨٠ ـ كتاب دفع التثريب على من فسّر معنى التثريب.
٨١ ـ كتاب حلول المحنة بحصول الأبنة.
٨٢ ـ كتاب الجواهر واللآلىء في الأبدال العوالي.
٨٣ ـ كتاب الجواهر المبسوط لما ذكر حديث الهبوط.
٨٤ ـ كتاب مسلسل العيدين.
٨٥ ـ كتاب الإنذار بحدوث الزلازل.
٨٦ ـ كتاب ترتيب الصحابة في مسند أَبي يعلى.
٨٧ ـ مسند أَبي حنيفة.
٨٨ ـ مسند أهل داريا.
٨٩ ـ مسند مكحول.
٩٠ ـ معجم الصحابة.
٩١ ـ ترتيب الصحابة في مسند أَحْمَد.
٩٢ ـ معجم النسوان (كتاب من سمع منه من النسوان).
٩٣ ـ مناقب الشبان خمسة عشر جزءاً.
٩٤ ـ من وافقت كنيته كنية زوجته في مجلد.
٩٥ ـ الموافقات على الأئمة الثلاثة الثقات في الحديث في ستة مجلدات (كتاب الموافقات على شيوخ الأئمة الثقات ٧٢ جزء).
٩٦ ـ تشريف يوم الجمعة ٧ أجزاء.
٩٧ ـ تقوية السنّة على إنشاء دور السنة.
٩٨ ـ الاقتداء بالصادق في حفر الخندق.
٩٩ ـ المستفيد في الأحاديث السباعية الأسانيد.
١٠٠ ـ مجموع الرغائب مما وقع من حديث مالك الغرائب (١٠ أجزاء).
١٠١ ـ معجم أسماء القرى والأمصار.

١٠٢ ـ معجم الشيوخ النبلاء (النبل).

١٠٣ ـ معنى قول عثمان: ما تعنيت ولا تمنيت.

١٠٤ ـ المقالة الفاضحة للرسالة الواضحة.

١٠٥ ـ من لا يكون مؤتمناً لا يكون مؤذناً(١).

هذا الجهد أمضى أَبُو القَاسِم طيلة حياته في بذله، حيث اشتهر اسمه في الأرض، ولم يكن له نظير في زمانه، من حيث سعة علمه ودأبه على العمل.

ولم يزل طول عمره مواظباً على صلاة الجماعة ملازماً لقراءة القرآن مكثراً من النوافل والأذكار، والتسبيح أناء الليل وأطراف النهار، وكان يختم كل جمعة ولم يُرَ إلاّ في اشتغال يحاسب نفسه على ساعة تذهب في غير طاعة(٢).

وبقي منكبّاً على التأليف والتصنيف والتدريس، وكان الملِك العادل محمود بن زنكي نور الدين قد بنى له دار الحديث النورية، فدرّس بها إلى حين وفاته، غير ملتفت إلى غيرها، ولا متطلع إلى زخرف الدنيا، ولا ناظر إلى محاسن دمشق ونزهها، بل لم يزل مواظباً على خدمة السّنّة والتعبّد باختلاف أنواعه: صلاةً وصياماً واعتكافاً وصدقةً، ونشر علم وتشييع جنائز، وصِلاَت رحم إلى حين قُبض(٣).

توفي في رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمئة ليلة الاثنين حادي عشر الشهر، وصلى عليه القطب النيسابوري، وحضره صلاح الدين، ودفن عند أبيه بمقبرة باب الصغير(٤).

قال العماد(٥): «وكان الغيث قد احتبس في هذه السنة، فدرّ وسح عند ارتفاع نعشه، فكأن السماء بكت عليه بدمع وبله وطشّه».

وقال الحسين بن عَبْد اللّه بن رواحة يرثي أبا القاسم بن عساكر(٦):

(١) انظر معجم الأدباء: ١٣/ ٧٦، تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٣٣٥، وسير الأعلام: ٢٠/ ٥٥٨، شذرات الذهب: ٤/ ٢٣٩.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٢١٧، وسير الأعلام: ٢٠/ ٥٦٢.

(٣) طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٢٢٣.

(٤) سير الأعلام: ٢٠/ ٥٧٠، طبقات السبكي: ٧/ ٢٢٣، وفيات الأعيان ٣/ ٣١١، معجم الأدباء: ١٣/ ٧٥.

(٥) معجم الأدباء: ١٣/ ٧٥.

(٦) القصيدة في معجم الأدباء: ١٠/ ٤٨ ـ ٥٥. في ترجمة الحسين بن عبد اللّه بن رواحة، وبعضها في سير الأعلام: ٢٠/ ٥٦٨.

ذرا السعي في نيل العلى والفضائل ... مضى من إليه كان شد الرواحلِ
وقـولا لسـاري البـرق إنـي نعيتـه ... بنار أسى أو دمع سحب هـواطلِ
ومـا كـان إلا البحـر غـار ومـن يـرد ... سـواحلـه لـم يلـق غيـر جـداول
وهبكـم رويتـم علمـه عـن رواتـه ... وليـس عـوالـي صحبـه بنـوازل
فقـد فـاتكـم نـور الهـدى بـوفـاتـه ... وعـز التقـى منه ونجـح الـوسـائـل
خلت سنة المختار من ذب ناصر ... فـأقـرب مـا نخشـاه بـدعـة خـاذل
نحـا لـلإمـام الشـافعـي مقـالـة ... فـأصبـح شـافـي عـيّ كـل مجـادل
وسـدّ مـن التجسيـم بـاب ضـلالـة ... ورد مـن التشبيـه شبهـة بـاطـل

مكانة أَبي القاسم بن عساكر، وما قيل فيه:

يقول السبكي[١]: «هو الشيخ الإمام، ناصر السّنّة وخادمها وقامع جند الشيطان بعساكر اجتهاده وهادمها، إمام أهل الحديث في زمانه، وختام الجهابذة الحفّاظ، ولا ينكر أحد منه مكانة مكانه، محط رحال الطالبين، وموئل ذوي الهمم من الراغبين، الواحد الذي أجمعت عليه الأمّة، والبحر الذي لا ساحل له».

ويقول ابن خلكان[٢]: «كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره».

قال سعد الخير: ما رأيت في سنّ ابن عساكر مثله[٣].

قال القاسم بن عساكر: «سمعت التاج المسعودي يقول: سمعت أبا العلاء الهمذاني يقول لرجل استأذنه في الرحلة قال: إن عرفت أحداً أفضل مني حينئذ آذن لك أن تسافر إليه إلاّ أن تسافر إلى ابن عساكر فإنه حافظ كما يجب»[٤].

وقال شيخه الخطيب أَبُو الفضل الطوسي: «ما نعرف من يستحق هذا اللقب سواه ـ يعني لفظة الحافظ».

(١) طبقات الشافعية: ٧/ ٢١٦.
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ٣٠٩.
(٣) تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٣٣١.
(٤) تذكرة الحفّاظ: : ٤/ ١٣٣١، طبقات السبكي: ٧/ ٢١٨.

ومن ألقابه: ثقة الدولة، وصدر الحفّاظ، وناصر السّنّة، وجمال السّنّة، والثقة. وجميعها تؤكد مكانته وعلمه وثقة العلماء والناس بحديثه وروايته.

أما لقبه: «ابن عساكر» فيقول السبكي[١]: «ولا نعلم أحداً من جدوده يسمى عساكر، وإنما هو اشتهر بذلك يقول الذهبي في السير[٢]: فعساكر لا أدري لقب مَنْ هو مِن أجداده، أو لعله اسم لأحدهم.

وأوّل من أثبت هذا اللقب ابن الجوزي[٣] قال: عَلي بن الحَسَن بن هبة اللّه أَبُو القَاسِم الدمشقي، المعروف بابن عساكر».

وقال فيه الشيخ النووي: «هو حافظ الشام، بل هو حافظ الدنيا، الإمام مطلقاً، الثقة الثبت»[٤].

وقال ابن الدبيثي[٥]: «أحد من اشتهر ذكره وشاع علمه وعُرف حفظه وإتقانه».

وقال: أَبو القاسم «ختم به هذا الشأن ولم يخلف بعده في الحديث مثله ولا أرى مثل نفسه في معرفة الحديث ومعرفة رجاله».

وقال الذهبي في السير[٦]: «وبلغنا أن الحافظ عَبْد الغني المقدسي بعد موت ابن عساكر نفّذ من استعار له شيئاً من تاريخ دمشق، فلما طالعه، انبهر لسعة حفظ ابن عساكر، ويقال: ندم على تفويت السماع منه، فقد كان بين ابن عساكر وبين المقادسة واقع، رحم الله الجميع».

شعره:

وللحافظ أَبي القاسم بن عساكر شعر كثير، قلما أملى مجلساً إلاّ ختمه بشيء من شعره.

---

(١) طبقات السبكي: ٧/ ٢١٥.
(٢) سير الأعلام: ٢٠/ ٥٥٥.
(٣) المنتظم ط بيروت: ١٨/ ٢٢٤.
(٤) طبقات السبكي: ٧/ ٢١٩.
(٥) ذيل تاريخ بغداد: ١٥/ ٣٠١.
(٦) سير الأعلام: ٢٠/ ٥٦٨.

ومن أبيات بعثها إلى أَبي سعد ابن السمعاني يعاتبه على كتاب كان أَبُو سعد قد بعثه إليه:

ما كنت أحسب أن حاجاتي إليـ ... ـك وإن نأت داري مضاعه
أنسيت ثدي مودتي ... بيني وبينك وارتضاعه
ولقد عهدتك في الوفا ... ء أخا تميم لا قُضاعة[1]

ومن شعره[2]:

ألا إن الحديث أجلّ علم ... وأشرفه الأحاديث العوالي
وأنفع كل نوع منه عندي ... وأحسنه الفوائد والأمالي
فإنك لن ترى للعلم شيئاً ... تحققه كأفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه ... وخذه عن الشيوخ بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترمى ... من التصحيف بالداء العضال

ومن شعر الحافظ أَبي القاسم بن عساكر أيضاً[3]:

أيا نفس ويحك جاء المشيب ... فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن ... وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرّة ... وخطبُ المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون ... وما قدر الله لي بالأزل

قال السمعاني: وأنشدني لنفسه ببغداد[4]:

وصاحبٍ خان ما استودعته وأتى ... ما لا يليق بأرباب الديانات
وأظهر السرّ مختاراً بلا سبب ... وذاك والله من أوفى الجنايات
أما أتاه عن المختار في خبر ... أن المجالس تغشى بالأمانات

قال السمعاني: وأنشدني لنفسه بنيسابور[5]:

(١) طبقات السبكي: ٧/ ٢٢٢.
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٠، وسير الأعلام: ٢٠/ ٥٦٩، شذرات الذهب: ٤/ ٢٣٩.
(٣) سير الأعلام: ٢٠/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠، وفيان الأعيان: ٣/ ٣١٠، ومعجم الأدباء: ١٣/ ٨٦.
(٤) معجم الأدباء: ١٣/ ٨٦ ـ ٨٧.
(٥) معجم الأدباء: ١٣/ ٨٧.

لا قـدّس الله نيسـابـور مـن بلـد ... مـا فيـه مـن صـاحـب يسلـي ولا سكـن
لـولا الجحيـم الـذي في القلـب مـن حرق ... لفـرقـة الأهـل والأحبـاب والـوطـن
يـا قـوم دومـوا علـى عهـد الهـوى وثقـوا ... أنـي علـى العهـد لـم أغـدر ولـم أخـن
ولا تـدبـرت عيشـي بعـد بعـدكـم ... إلاّ تمثلـت بيتـاً قيـل مـن زمـن
فـإن أعـش فلعـلّ الله يجمعنـا ... وإن أمـت فقتيـل الهـم والحـزن

الفصل الثاني

تاريخ مدينة دمشق:

سمى أَبُو القاسم الحافظ ابن عساكر تاريخه: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها.

يفهم من تسميته أنه أرّخ لمدينة دمشق في مرحلة ما، أو في عصره، والذي يعرض للكتاب يرى أن ابن عساكر لم يخص دمشق أو نواحيها فقط، بل تعداها في الكلام فكتب لبلاد الشام كلها، ويصبح التخصيص في التسمية قاصراً عن الإحاطة بمضمون شمولية الكتابة والمواضيع والتراجم التي تطرأ إليها.

يقول د. شكري فيصل في مقدمة المطبوعة عاصم ـ عائذ[1]: «إن المؤلّف لا يقدّم لنا تاريخاً دمشقياً، ولا تاريخاً شامياً فحسب، وإنما يقدم تاريخاً حضارياً لهذه البلاد كلها التي انتشر فيها الإسلام وسادت فيها العربية، وانساحت فيها مهاجرة العرب المسلمين بين أقصى الشرق فيما وراء النهر، وبين أطراف المحيط».

ولقد خصّ الحافظ المجلدة الأولى بفضائل الشام وفتوح الشام عامة، وبعض المجلدة بخطط دمشق، وذكر مساجدها، وكنائسها، وأبوابها، ودورها، وأنهارها، وقنواتها، ثم بدأ بالترجمة لكل من دخلها، أو اجتاز بنواحيها من أنبيائها وهداتها وخلفائها وولاتها وفقهائها وقضاتها وعلمائها وقرّائها ونحاتها، وشعرائها ورواتها.

ولم يكن تاريخه أول تاريخ لدمشق والشام، ولم يكن تاريخ دمشق الأولِ من نوعه بين كتب تاريخ المدن.

---

(١) تاريخ دمشق المجلد عاصم ـ عائذ: ص ٧.

فقبله ألّف «تاريخ الرقة» للقشيري، وتاريخ أصبهان لأبي نعيم، وتاريخ نيسابور للحاكم، وتاريخ بغداد للخطيب وهو أهم ما أُنتج قبله.

ويمتاز تاريخ دمشق عن التواريخ التي سبقته، أنه أوسعها مادة وأشملها توجهاً وفي قيمته ومكانته يقول: د. المنجد[١]: «لم تشهد دمشق في تاريخها محدِّثاً فاق الحافظ في الحديث، ولم تعرف في تاريخها ثمانين مجلدة غيره، فيكفيها فخراً أنها أوتيت أوسع تاريخ كتب عن مدينة إسلامية، كتبه مؤلف من أعظم العلماء في صدر الإسلام».

وفي قيمته صدّر الأستاذ محمد كرد علي المجلدة الأولى بقوله[٢]: «ما حظيت مدينة في الإسلام بتاريخ لها يضاهي تاريخ دمشق هذا».

ويقول: «وقد يكون تاريخ دمشق أوسع تواريخ المدن، وهو أيضاً من أوسع المصادر في تراجم الرجال، حتى ليجرد منه كتب على حدة في موضوعات مختلفة كولاة دمشق مثلاً وقضاتها وشعرائها. ومنه يستخرج أحسن تاريخ لبني أمية سكتت معظم التواريخ عنه، وهو إلى ذلك حوى عدة كتب مستقلة، فكل طالب يظفر فيه بطلبته، ويجد فيه ما لا يجده في كتاب غيره، لأن ابن عساكر يمتاز بالتحري والبسط والاستقصاء وتتبع النوادر في سير المترجم لهم، وأخبارهم».

ومن المؤكد أن الحافظ كان قد وضع تصوره العام لموضوع كتابه في وقت مبكر، ولعله وضع النهج والمخطط التفصيلي لمضمون الموضوعات التي سيتناولها بالبحث، ولعل هذا التصّور المبدئي هو الذي دفع به إلى رحلتيه الأولى والثانية إلى بغداد ومنها إلى مكّة وبلاد الحجاز، ثم توجهه إلى بلاد العجم.

فقد تأكّد بشهادة رفيقه وصديقه أَبي سعد السمعاني أنه بدأ بكتابه قبل رحلته إلى بلاد العجم، يقول السمعاني[٣]: «دخل نيسابور قبلي بشهر، سمعت منه وسمع منّي، وسمعت منه معجمه، وحصل لي بدمشق نسخة منه، وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق».

---

(١) تاريخ دمشق المجلد الأول المقدمة، ص ٣١.
(٢) تاريخ مدينة دمشق، المجلد الأول تصدير: ص د.
(٣) تذكرة الحفّاظ ٤/ سير الأعلام ٢٠/ ٥٦٧.

وقد مضى فيما كتبناه أن رحلته إلى بلاد العجم كانت في سنة تسع وعشرين وخمسمئة.

وذكرنا أن عودته إلى دمشق كانت في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة وأنه استقر فيها منصرفاً إلى التدريس والتصنيف والتأليف، وكان نتاج رحلاته تحصيله علماً كثيراً، وحفظه وإتقانه حديثاً واسعاً ومعرفة طرقه وأسانيده ومتونه وهو ما ظهر في كتاب تاريخ دمشق.

ويتحدَّث الحافظ في مقدمته عن كتابه وعمله ونهجه فيه فقال:

«أمّا بعد، فإني كنت بدأت قديماً بالاعتزام، لسؤآل من قابلت سؤآله بالامتثال والالتزام على جمع تاريخ لمدينة دمشق، أمّ الشام، حمى الله ربوعها من الدثور والانفصام، وسلّم جرعها من كيد قاصدٍ يهمّ بالاختصام، فيه ذكر من حلّها من الأماثل والأعلام، فبدأت به عازماً على الإنجاز له والاتمام، فعاقت إنجازه وإتمامه عوائق الأيام من شدة الخاطر وكلال الناظر وتعاقب الآلام.

فصدفت عن العمل به برهة من الأعوام، حتى كثر عليّ في إهماله وتركته لَومُ اللوّام، وتحشيم من تحشيمه سبب لوجود الاحتشام، وظهر ذكر شروعي فيه حتى خرج عن حد الاكتتام، وانتشر الحديث فيه بين الخواص والعوام، وتطلع إلى مطالعته أولو النهى وذوو الأحكام، ورقى خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمقام(١)، الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام، أدام الله ظل دولته على كافة الأنام، وأبقاه مسلّماً من الأسواء منصور الأعلام، منتقماً من عداة المسلمين الكفرة الطغام، معظماً لحملة الدين بإظهار الإكرام لهم والاحترام، منعماً عليهم بإدرار الإحسان إليهم والإنعام، عافياً عن ذنوب ذوي الإساءات والاجترام، بانياً للمساجد والمدارس والأسوار ومكاتب الأيتام، راضياً بأخذ الحلال رافضاً لاكتساب الحطام، آمراً بالمعروف زاجراً على ارتكاب الحرام، ناصراً للملهوف وقاهراً للظالم العسوف بالانتقام، قامعاً لأرباب البدع بالإبعاد لهم والإرغام، خالعاً لقلوب الكفرة بالجرأة عليهم والإقدام، وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز له والاستتمام، ليلم بمطالعة ما تيسّر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام، شاكراً لما

(١) القمقام من الرجال السيِّد الكثير الخير الواسع الفضل (اللسان).

ظهر منه من حسن الاهتمام، مبادراً ما يحول دون المراد من حلول الحمام، مع كون الكبر مظنة العجز ومطية الأسقام، وضعف البصر حائلاً دون الاتقان له والاحكام، والله المعين فيه بلطفه على بلوغ المرام».

وانتهى من تصنيفه في مرحلته الأولى سنة ٥٤٩هـ وبلغ خمسمئة وسبعين جزءاً ثم أخذ يزيد فيه، ويضم إليه ما يستجد عنده حتى تمت نسخته الجديدة والمؤلّفة من ثمانين مجلداً سنة ٥٥٩هـ.

وقدّر د. المنجد[١] أن الحافظ سلخ في تأليف تاريخه ثلاثين سنة أو أقل قليلاً.

ويقول ياقوت الحموي[٢]: «وجمع وصنّف، فمن ذلك: كتاب تاريخ مدينة دمشق وأخبارها وأخبار من حلّها أوردها في خمسمئة وسبعين جزءاً من تجزئة الأصل، والنسخة الجديدة ثمانمئة جزء».

ويقول الذهبي[٣]: وصنّف وجمع فأحسن فمن ذلك تاريخه في ثمان مئة جزء، قلت: الجزء عشرون ورقة، فيكون ستة عشر ألف ورقة.

وفي تقديمه د. شكري فيصل[٤] تاريخ مدينة دمشق مظهراً مكانته بين كتب التراث بعامة ومكانته من كتب التاريخ بخاصة، ومكانته من التاريخ لبلاد الشام بوجه أخص يقول:

«إنه يؤرخ لجوانب من الجاهلية من حيث يترجم لرجال من الجاهليين والمخضرمين، عرفوا دمشق وأعمالها، أو حلّوا بها أو اجتازوا بنواحيها من وارديها وأهلها، كما يقول في عنوان كتابه.

ثم هو يؤرِّخ للسيرة النبوية بجوانبها وللذي اتّصل بها ونتج عنها وما كان فيها من أحداث، وذلك حين يبدأ كتابه بسيرة النبي ﷺ ويخصِّص لذلك نصف المجلدة الثانية، ثم هو يترجم للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ولمن كان حولهم ومعهم تراجم طويلة مستوفاة فتأتي هذه التراجم وكأنها تاريخ للعصر كله بالكثير من دقائقه التي لا نجد بعض

---

(١) تاريخ دمشق المجلد الأول، المقدمة ص ٣٣.

(٢) معجم الأدباء ١٣/ ٧٦.

(٣) سير الأعلام: ٢٠/ ٥٥٨.

(٤) تاريخ دمشق، المطبوعة عاصم ـ عائذ، المقدمة ص ٧ ـ ٨.

مادتها عند غيره، والتي لا تمتد في بلاد الشام وحدها بل في أقطار الإسلام كلها حيث انتشر هؤلاء العرب في العصر الأموي، من أقطار الدنيا هداة أو دعاة، قواداً أو علماء.

ومن الطبيعي أن يكون كتاب ابن عساكر أغنى المصادر عن تاريخ الأمويين. ولكن تاريخ الأمويين ليس تاريخهم هم فحسب وإنما هو تاريخ العرب والمسلمين في الفترة التي كانت فيها دمشق عاصمة الحياة العربية.

وما أكثر ما تواشجت الصلاة في القرن الأول في مقر الخلافة. وهل كانت الجماعات العربية، بكبار رجالاتها أو أرهاط قبائلها، في غنى عن زيارة الشام والوفود على الخلفاء والاستجابة لندبهم في هذه البعوث أو تلك، أو في الفتوحات البرية أو في الفتوحات البحرية؟ ألم تكن الشام في السلم والحرب، في معارك صفِّين أو في حركات العراق والحجاز، في البعوث نحو إفريقيا أو نحو القسطنطينية هي مهاد هذا الملتقى الكبير، الذي انصهرت فيه القبائل وامتدت أمة واحدة هنا نحو أقصى الشرق، وهناك نحو أقصى الغرب.

ألا يؤكِّد ذلك كلّه عندنا أن هذا التاريخ هو تاريخ للعالم الإسلامي كله من خلال هذه العدسة الضوئية الصغيرة المكبّرة: دمشق.

وهل كانت الشام بمعزل عن الحياة والمشاركة فيها في القرون التي تلت قيام الدولة العباسية؟ ألم يدخلها علماء وخلفاء وقوّاد؟ ألم يرتحل منها فقهاء وشعراء، وولاة وقضاة، ورواه كان لهم في صياغة تاريخ العرب والمسلمين جميعاً نصيب؟.

إن تاريخ دمشق لابن عساكر يقدم للذين يدرسون التاريخ الأندلسي: فتوحاته وسياسته، وإمارته وخلافته، وإدارته وقيادته، وعلومه وثقافته، وأدبه وفكره، مادة طيّبة وخاصة في بداياته الأولى مما هو جدير بالتتبّع له والإفادة منه.

وكان تاريخ ابن عساكر: يمتد في المكان امتداد بلاد الشام من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ثم يجاوز ذلك ليكون على امتداد الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية.

ويمتد في الزمان ليسجل أطرافاً من تاريخ الجاهلية، ثم يكون تاريخاً للسيرة النبوية والعصر الراشدي والخلافة الأموية ثم ما بعدها من الخلافة العباسية والدويلات حتى وفاة ابن عساكر في أواخر القرن السادس الهجري «٥٧١».

ويمتد عمقاً في فهم التاريخ فلا تستوقفه الأحداث والوقائع وحدها وإنما يتناول

روح التاريخ حين يقدّم لنا المادة الأولية الغنية لرصد الحركة الحضارية: ديناً وشريعة وثقافة وفكراً. كذلك كان، وكذلك يجب أن نفهمه وأن ننظر إليه.

ومع أهمية هذا الكتاب، فإن مؤلفه الحافظ أبا القاسم كان محدِّثاً قبل أن يكون مؤرِّخاً، وقد غلب عليه الحديث، حيث تعمّق في معرفته متناً وسنداً وطرقاً، حتى غدا إمام أهل الحديث في زمانه[1]، لذلك فقد سلك في تاريخه هذا نهج المحدِّثين فهو يبدأ بذكر السند ثم يورد الخبر[2].

وهذا يعني أن بعض القضايا التي تشغل بال المؤرخين ويهتمون بها قد يمرّ بها عرضاً، وقد لا يذكرها مطلقاً، لأنها لا تدخل في دائرة اهتمامه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يختلف عن غيره من المؤرخين، فهو يبحث عن مادة معينة يريد أن يقرّها في ذهن قارئه، وهناك قضايا أساسية يفتش عنها[3].

وهذا النهج هو الذي تبعه جميع المحدِّثين الذين سبقوه وألّفوا في تاريخ المدن.

وأما التراجم فقد رتّبت على حروف الهجاء، وبدأ بمن اسمه أَحْمَد قبل من كان اسمه إبراهيم، واعتبر الحروف في أسماء آبائهم وأجدادهم، وأردف ذلك بمن عرف بكنيته ولم يقف على حقيقة تسميته، ثم بمن ذكر بنسبته وبمن لم يسم في روايته، وأتبعهم بذكر النسوة، والإماء والشواعر.

وابن عساكر حين يترجم لمن يترجم لهم من الشاميين أو غيرهم لا يسوق الترجمة على أنها نتيجة مطالعاته وقراءاته، ولا يصوغها على أنها خلاصة أفكاره واطلاعاته... وإنما يقدّم لك مادتها الأولى مسندة في كل جزئية من جزئياتها، حتى في الاسم أو الكنية أو يوم الوفاة. وتتعدد صور الخبر بتعدد الأسانيد التي انتهت إليه والروايات التي جاء عليها، وقد تتكاثر الأسانيد على خبر واحد في صورة واحدة، أو صور متقاربة... إنه يتابع أصحاب الحديث في طريقتهم في الإسناد، وكانت تلك هي الطريقة السائدة في كل فروع الثقافة الإسلامية: تثبتاً من الخبر وتوخياً للحق فيه ونشداناً للصواب، حتى إذا تتابعت القرون تحلل أصحاب الأخبار الأدبية من ذلك، ثم لحق بهم مؤرخون من

---

(١) طبقات السبكي: ٧/ ٢١٥.

(٢) تاريخ دمشق المجلد الأول، المقدمة: ص ٣٣.

(٣) تاريخ دمشق: عثمان بن عفّان المقدمة ـ أوب.

المؤرخين وأصحاب التراجم، وبقي ابن عساكر ومن في طبقته يمثلون ذروة هذا الأسلوب في القرن السادس الهجري.

ولهذا فإن كل ما عند ابن عساكر في تاريخه ينشعب في هذين القسمين الكبيرين: الأسانيد، والأخبار[(١)].

وكان ابن عساكر صاحب منهج، فما كان من الأحاديث متفقاً مع منهجه جال فيه وصال وأسهب وأطنب، وهذا لا يعني أنه لم يكن موضوعياً، فلا يُظن أنه التزم المنهجية التزاماً دقيقاً، إذ لم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك، فهو ينقل أخباراً وأحاديث متعددة الجوانب، وكثيراً ما يكون مضطراً إلى روايتها بتمامها حرصاً على سلامة الرواية، وتمام الحديث أو الخبر».

أذيــالــه:

ولهذا التاريخ أذيال منها[(٢)]:

ـ ذيّل ولد المصنف القاسم ولم يكمله.

ـ ذيّل صدر الدين البكري.

ـ ذيّل عمر بن الحاجب.

ـ وذيّل علم الدين البرزالي.

ـ ذيّل أَبُو يعلى ابن القلانسي[(٣)].

---

(١) تاريخ دمشق، المطبوعة عاصم ـ عائذ، المقدمة: ص ١٦، وانظر مجلة المجمع العلمي بدمشق المجلد: ٤٩.

(٢) انظر كشف الظنون: ١/ ٢٩٤، الوافي بالوفيات: ١/ ٤٨.

(٣) عقب د. المنجد في مقدمة المجلدة الأولى ص ٣٧ ص ٣٧: «ولم أجد وجهاً لذلك».

أ ـ فمن حيث النهج يخالف تاريخ القلانسي نهج تاريخ الحافظ، لأن القلانسي جعل تاريخه للحواديث لا للتراجم.

ب ـ ومن حيث الزمن تقف حوادث القلانسي عند سنة.

هـ ـ فهو متقدم على مؤلف تاريخ دمشق.

ج ـ يترجم الحافظ القلانسي فيقول عن تاريخه: وقد صنّف تاريخاً للحوادث من بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى حين وفاته، ولا يذكر أنه ذيل لتاريخه، فلو كان ذيلاً لتاريخه لكان ذكر ذلك.

مختصـــراتـــه(١) :

وله مختصرات منها :

ـ ما اختصره الإمام أَبُو شامة عَبْد الرَّحْمٰن بن إسماعيل الدمشقي، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وهو نسختان كبرىٰ في خمسة عشر مجلداً وصغرى.

ـ مختصر للقاضي جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم الأنصاري ابن منظور، صاحب لسان العرب نزّله في نحو ربعه.

ـ مختصر للشيخ بدر الدين محمود بن أَحْمَد العيني.

ـ انتقى منه جلال الدين عَبْد الرَّحْمٰن بن أَبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ وسمّاه «تحفة المذكر المنتقى من تاريخ ابن عساكر».

ـ الذيل على ذيل البرزالي للقاضي تقي الدين أَبي بكر بن شهبة.

ـ منتخب للقاسم بن علي بن عساكر.

ـ منتخب للصفار.

ـ انتقى منه أَحْمَد بن عَبْد الدائم المقدسي كتاباً سمّاه: فادهة المجالس وفكاهة المجالس.

ـ تعليق من تاريخ مدينة دمشق لأحمد بن حجر.

ـ مختصر لإسماعيل بن مُحَمَّد الجراح اسمه : العقد الفاخر بتاريخ ابن عساكر.

ـ مختصر لأبي الفتح الخطيب.

ـ تهذيب ابن عساكر لعَبْد القادر بدران. وقد صدر منه خمسة أجزاء ثم تابع العمل فيه الأستاذ أَحْمَد عبيد فطبع منه جزءين: السادس والسابع ينتهي السابع بترجمة عَبْد اللّه بن سيار.

---

(١) كشف الظنون: ١/ ٢٩٤، والوافي بالوفيات، ١/ ٤٨، والمجلد الأول مقدمة الدكتور المنجد: ص ٣٧ ـ ٣٨.

النسخ المخطوطة:

١ ـ نسخة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق تتألّف من ١٩ مجلداً، فيها نواقص وثغرات كثيرة وصدّر ناشرها: وكمّل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة، ومراكش، واستانبول.

وعلى الصفحة الأولى من كل مجلد: وقف حضرة الوزير الأكرم والدستور الأفخم الحاج سُلَيْمَان باشا محافظ الشام (المعروفة بالنسخة السليمانية).

٢ ـ نسخة مصورة من الخزانة العامة بالرباط، جزء منها يتناول **بداية التاريخ** إلى نهاية القسم الأول من السيرة النبوية «ذكر عروجه ﷺ إلى السماء وقد أشرنا إليها ـ «خع».

٣ ـ نسخة مصورة من دار الكتب الوطنية بتونس تتناول أجزاء من حرف العين إلى حرف الميم.

٤ ـ نسخة مصورة من خزانة مكتبة ابن يوسف بمراكش، والمعروفة بالنسخة المغربية (والنسخة اليوسفية) وقد أشرنا إليها بـ: «م».

٥ ـ نسخة مصورة من مكتبة الأزهر.

٦ ـ جزء من نسخة مصورة عن مكتبة أَحْمَد الثالث تتضمن القسم الأخير من أخبار دمشق، والسيرة النبوية.

عملنا في الكتاب:

أ ـ الغاية التي نتوخاها:

يهمنا أن نؤكد أن غايتنا من تحقيق كتاب تاريخ مدينة دمشق هو:

ــ الوصول إلى نص صحيح، منزّه عن التصحيف والتحريف والنقص.

هذا النص السليم يضع القارىء والباحث والدارس أمام كتاب تاريخ دمشق وجهاً لوجه فيدرك بوضوح قيمته ومكانته والدور الخطير الذي يضطلع به.

ــ وضع الكتاب، تاريخ مدينة دمشق، كله بين أيدي الناس، لما يمثّله من ثروة

فكرية وتاريخية وحضارية، وفي نظرنا أن ظهور هذا الكتاب إلى النور يساهم إلى حدّ بعيد في إعادة تجديد كتابة التاريخ العربي والإسلامي على أساس علمي واضح.

ب ـ نهجنا في التحقيق:

١ ـ كلمة عن النسخ المخطوطة:

اعتمدنا النسخة المصورة عن المكتبة الظاهرية كنسخة أم فيها نواقص كثيرة وثغرات هامة وتصحيفات وأخطاء كثيرة وبياض بين الكلمات والأسطر. ولكن الضرورة اقتضت اعتمادها لأن النسخ الأخرى الموجودة بين أيدينا أجزاء متناثرة تطال باباً أو أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، باستثناء النسخة المصوّرة عن مكتبة أحمد الثالث، فقد اعتمدنا القسم الثاني منها ـ والذي يتناول الجزء الثاني من السيرة النبويّة ـ أصلاً لعملنا في تحقيق السيرة النبوية «القسم الثاني» وهو الجزء الرابع من كتابنا هذا.

أما النسخة السليمانية (النسخة الأم) فهي تتكوّن من تسعة عشر مجلداً تناوب عليها عدد من النساخ مختلفي الخطوط حسب التفصيل الآتي:

ـ **الجزء الأول**: وبه يبتدىء الكتاب ويحوي ٣٩٣ ورقة بقياس ٢٩× ٢٠ سم و ٣٣ سطراً في الصفحة. كتب بخط نسخي قويم مع ألفاظٍ وإشارات بالحمرة كتب أوائل القرن الثاني عشر أي حوالي سنة ١١١٨ كما أشير إليه في الجزء الثالث.

ـ **الجزء الثاني**: بينه وبين الجزء الأوّل خرم كبير يبتدىء بترجمة أحْمَد بن عتبة بن مكين وينتهي بترجمة إِسْمَاعيل بن عيّاش بن سليم يحوي ٤٣٩ ورقة فيها ثلاثة أنواع من الخط أوله حتى الورقة ٢١٤ خط رقعي جميل وثانيها من الورقة ٢١٥ إلى ٢٢٥ خط نصف نسخي وثالثه من الورقة ٢٢٦ إلى آخر الجزء خط تعليق غير قويم وبقية الوصف مشتركة مع الجزء الأول.

ـ **الجزء الثالث**: قد يكون بينه وبين سابقه سقط يسير وهو يبتدىء بإِسْمَاعيل الأسدي وينتهي بجابر بن عمرو بن أَبي صعصعة وفي الأوراق الأخيرة منه بياض يشير إلى خرم في النسخة المنقول منها، يحوي ٣٢٣ ورقة مكتوب بخط تعليق مستعجل وهو خط أحْمَد بن سليمان الأجهوري وبقية الوصف كما تقدّم.

ـ **الجزء الرابع**: قد يكون بينه وبين سابقه سقط يسير وهو يبتدىء بجعونة بن

الحارث بن خالد وينتهي بالحسين بن عَبْد اللّه بن شاكر، يحوي ٣٤٢ ورقة، كتب بثلاثة أقلام مختلفة أولها حتى الورقة ١٦٣ نصف نسخي عليه بعض التشكيل، وثانيهما حتى الورقة ٢٣٨ نسخي وثالثهما حتى آخر الكتاب رقعي جميل هو خط أوّل نسخة الجزء الثاني، أمّا تاريخ كتابة هذا الجزء فهو سنة ١١١٨ وبقية الوصف كما تقدم.

ـ **الجزء الخامس**: يبتدىء بالحسين بن عَبْد اللّه بن محمَّد بن أَبي كامل وينتهي بداود النبي يحوي ٣٥٩ ورقة، كتب بخط نسخي هو خط الجزء السابق اعتباراً من الورقة ١٦٤ وبقية الوصف كما تقدّم في الجزء الأوّل.

ـ **الجزء السادس**: يبتدىء بداود بن الأسود وينتهي بزيرك بن عَبْد اللّه يحوي ٣٤٤ ورقة خطه تعليق مستعجل وهو خط أواخر الجزء الثاني، وباقي الوصف كما تقدم.

ـ **الجزء السابع**: يبتدىء بسابق بن عَبْد اللّه أَبي سعيد وينتهي بسليمان بن يزيد الأزدي يحوي ٣٢٧ ورقة، فيه نوعان من الخط أولهما حتى الورقة ١٠٢ خط أواخر الجزء الثاني، ثانيه حتى الورقة ١٩٠ نصف نسخي، أما القسم الأخير فكتب بخط القسم الأول وبقية الوصف كما تقدم.

ـ **الجزء الثامن**: بينه وبين سابقه سقط يبتدىء ببقية ترجمة شداد بن أوس أَبي يعلى وينتهي بعَبْد اللّه بن بسر بن أَبي صفوان، يحوي ٥٣١ ورقة، كتب بخط نسخي حسن كأنّه خط الجزء الأوّل، بقية وصفه كما تقدّم.

ـ **الجزء التاسع**: يبتدىء ببقية ترجمة عَبْد اللّه بن بسر بن أَبي صفوان وينتهي بترجمة عبد الرَّحمن بن عَبْد اللّه بن الحارث وفيه سقط من الورقة ٣٨٩ من ترجمة عَبْد اللّه بن عروة بن الزبير إلى عَبْد الجبَّار بن مسلم وسقط كبير في ترجمة عَبْد اللّه بن عبّاس، يحوي ٥٠٠ ورقة، فيه خطان أولهما حتى الورقة ٢٣٩ خط نصف نسخي وهو خط الجزء السابع من الورقة ١٠٢ حتى ١٩٠ وثانيهما رقعي حتى الورقة ٣٠٩ وما بقي فمن الخط الأول، بقية الوصف كما تقدم.

ـ **الجزء العاشر**: يبتدىء بتتمة ترجمة عبد الرَّحمن بن عَبْد اللّه بن الحارث وينتهي بترجمة عبيدة بن أشعب المدني، يحوي ٣٨٣ ورقة خطّه خط الجزء الخامس أمّا بقية الوصف فكما تقدّم.

ـ **الجزء الحادي عشر**: يبتدىء بترجمة عبيدة بن عبد الرَّحمن بن حكيم وينتهي

بعَلي بن حوسن به ٤٤٥ ورقة، كتب بأقلام مختلفة لعلها لناسخ واحد وكأنّها من خطّ الجزء الثالث، أما بقية الوصف فكما تقدّم.

ـ **الجزء الثاني عشر**: يبتدىء بعَلي بن حجر بن إياس السعدي وينتهي بعمر بن الخطاب يحوي ٣٦٤ ورقة، خطه خط الجزء الثالث كتب سنة ١١١٨هـ، وبقية الوصف مشترك مع سابقيه.

ـ **الجزء الثالث عشر**: يبتدىء ببقية ترجمة عمر بن الخطاب وينتهي بترجمة عياض بن غنم يحوي ٤١٢ ورقة، من خط الجزء الثاني اعتباراً من الورقة ٢٢٦ حتى آخر ذلك الجزء، وبقية الوصف كما تقدّم.

ـ **الجزء الرابع عشر**: يبتدىء بترجمة عياض بن مسلم الكاتب وينتهي بمحمَّد بن إدريس الشافعي، يحوي ٤١٧ ورقة كتب بخطّ الجزء الخامس حتى الورقة ١٩٠ وبقية الوصف كما تقدّم.

ـ **الجزء الخامس عشر**: يبتدىء ببقية ترجمة محمَّد بن إدريس الشافعي بعد سقط قليل وينتهي بترجمة محمَّد بن مطرف ومن الورقة ٢٩٣ إلى ٢٩٥ بياض. يحوي ٥٢٤ ورقة كتب بخطين أوّلهما حتى الورقة ٢٦١ خط الجزء الخامس حتى الورقة ١٩٠، وثانيهما من الورقة ٢٦٣ حتى آخر الجزء خط أول الجزء الرابع وبقيّة الوصف كما تقدّم.

ـ **الجزء السادس عشر**: يبتدىء ببقية ترجمة محمَّد بن مطرف وينتهي بترجمة معبد بن وهب وفيه سقط بالأوراق التالية ٥٤، ٣٤١، ٣٨٠، ٣٩٨ يحوي ٤٠٣ ورقات وخطه خط أواخر الجزء الثاني إلاّ ما دخله من خط آخر وهو قليل، وبقية الوصف كما تقدّم.

ـ **الجزء السابع عشر**: يبتدىء بترجمة معبد مولى الوليد بن معاوية وينتهي بهَارون بن عمر بن يزيد يحوي ٤٩٣ ورقة، خطه خط أواخر الجزء الثاني وبقية الوصف كما في الأوّل.

ـ **الجزء الثامن عشر**: يبتدىء بترجمة لاحق بن الحسين بن عمران وينتهي بترجمة يزيد بن معاوية ولا بدّ أن سقطاً حدث بينه وبين سابقه فذهب بحرف الهاء يحوي ٢٠٠ ورقة خطه خط أواخر الجزء الثاني، وبقيّة الوصف كما تقدّم.

ـ **الجزء التاسع عشر**: يبتدىء بترجمة أَبي ثابت الدمشقي من قسم الكنى وينتهي

بترجمة امرأة شاعرة من نصارى بصرى ودعاء للمصنّف، فيه سقط من أواخر ترجمة يزيد بن معاوية إلى حرف التاء من قسم الكنى، كما أن الورقة ٧٦ يتبعها أربع صفحات بيض معقّبة بقوله: «أخبرني والدي الحافظ أَبُو القاسم عَلي بن الحسن رحمه الله» وهذا يدلّ على أنّ هذا الجزء رواية ابن المؤلف وهو القاسم، ممّا يدل أنّ الأصل يختلف بين أجزاء النسخة، وقد قسم الجزء كما يلي من الورقة ١٣٢ ذكر من نسب إلى الآباء ولم يعرف بالكنى ولا بالأسماء ومن الورقة ١٤٠ ذكر أصحاب الألقاب التي غلبت على الأسماء والأنساب أما من الورقة ١٤٧ ففيها ذكر المجهولين مرتبين على الأزمان والسنين، إلى الورقة ١٩٠ حيث يذكر من النساء من لهنّ رواية أو شعر من الحرائر والإماءِ مرتباً ذكر أسمائهِنّ على الحروف، أما من الورقة ٢٩٣ فذكر من ذكرت من النساء بكنيتها دون التعريف لها بتسميتها. ثم من الورقة ٣١١ يذكر المجهولات غير المسميات والمكنّيات، في حين أنّ آخر ورقة (٣١٩) ففيها ترجمة امرأة شاعرة من نصارى بصرى. ويحتوي ٣١٩ ورقة كتب بخط أواخر الجزء الثاني، وبقية الوصف كما تقدم[1].

ب ـ نسخة مصورة من خزانة مكتبة ابن يوسف بمراكش والمعروفة بالنسخة المغربية (والنسخة اليوسفيّة) رمزنا إليها بـ «م»، تبدأ بترجمة أحْمَد بن عتبة بن مكين إلى ترجمة يزيد بن معاوية هي مقسمة على واحد وثلاثين جزءاً ينتهي الجزء الأخير بقوله: «يتلوه: أنا أَبُو السعود المجلي، نا أَبُو الحسين بن النَّقّور. وهو ما يشير إلى أنّ ترجمة يزيد بن معاوية لم تنته. اعتمدنا منه الجزء ١٥ و ١٦ أصلاً للسقط الموجود بالجزء التاسع من النسخة السليمانية ما بين ترجمة عَبْد الله بن عروة بن الزبير وترجمة عَبْد الجبَّار بن مسلم، واعتمدناها كنسخة مساعدة للنسخة الأم، كتبها أكثر من ناسخ كما يتبدّى من اختلاف الخطوط، وخطّها في مجمله نسخي، وكتبت عناوين التراجم وبعض الألفاظ بحبر أحمر تحوي ٣١ سطراً في الورقة في معظم الأجزاء، كتبت أوائل القرن الثاني عشر أي حوالي سنة ١١١٢هـ كما أشير إليه في أواخر الجزء ١٥ والجزء ٣١.

جـ ـ جزء من نسخة مصورة عن مكتبة أحْمَد الثالث وقد إعتمدناها أصلاً وحيداً في تتمة السيرة، النبوية الظاهر أنّها كتبت في القرن العاشر الهجري كتبت بخط نسخي

(١) اعتمدنا في وصف النسخة السليمانية على فهرس مخطوطات الظاهرية ج ٦ من ١٠٩ إلى ١٣٠.

وعناوينها واضحة مكتوبة بخط الثلث إلاّ أنّ فيها سقطاً وتصحيفاً عدد أسطرها ٣٩ سطراً في الورقة.

أما مختصر ابن منظور فيعتبر نسخة قيّمة، ورغم أنه لا يمثّل عمل ابن عساكر، وابتعد في نهجه وروحه عن أسلوب ومنهج ابن عساكر في بناء وإقامة تاريخه فقد قام ابن منظور باختصار كتاب تاريخ دمشق بعملٍ ـ رغم أهميته وقيمته ـ خاص به حكمه نهجه وأسلوبه وذوقه الخاص، ونظرته وميوله واتجاهاته الفكرية فكان يحذف أو يثبت ما يراه، ويختصر ويهمل ما يرغب، وكان رجوعنا إليه ضرورياً عندما يتعذر علينا ملاحقة خبر أو رواية في مصدر ما، وكان ـ رغم محدودية الاستعانة به ـ من الأصول المعينة لنا في عملنا للوصول إلى أثبات نص واضح وسليم.

وأما تهذيب ابن عساكر، فهو قسمان: قسم أصدره الشيخ عَبْد القادر بدران ويمتد على أجزاء خمسة، يقول الشيخ بدران في مقدمته: . . . «الإمام المتقن الحافظ الكبير ثقة الدّين أَبُو القاسم علي ابن عساكر الدمشقي رحمه الله فجمع تاريخه الملقَّب بالتاريخ الكبير في ثمانين مجلداً وجعله تاريخاً لمدينة دمشق الزاهرة ضارع به تاريخ بغداد للبغدادي فجاء روضة زاهرة يجتني منها المحدِّث ثمرات المقاصد، والأديب ورد الخمائل والسياسي حكمة تبهر العقول، واللغوي اكماء وعساقلا، والفقيه نوادر الأصول، والواعظ نكتاً ولطائف، والخطيب فقراً تصاغ من العسجد، والبليغ المطابقة لمقتضى الأحوال، والمستفيد نوادراً وأمثالاً لا يجدها مجموعة في كتاب إلاّ أنه طوّل شرحه بطول السند، وكرّر فيه الحوادث تكراراً كان مألوفاً في زمنه وقد يمل منه أبناء هذا الزمان، فلذلك هجر حتى عَزَّ وجوده، فصار كعنقاء فعرب وحديث مغرب، وأصبح لا يسمح لعشاقه بالوصال ولا يتدانى لقاصده حتى ينال مع احتياج أبناء زمننا إليه وتشوّقهم لرؤية طلعته، فأحببت أن أتحفهم به محذوف التكرار والأسانيد، فشمرت ساعد الجد لذلك وأخذت عبارته خالية عن التكرار وأبقيت أسانيد في محلها من صحفه. . . ثم إني نقحت الحوادث حسب الإمكان. . . وأعملت الفكر في تصحيح ألفاظه التي تناولتها أنامل الكتبة بالتحريف».

وفي مقدمته للجزء الثالث يقول: «. . . وضممت إليه فرائد سنحت للفكر أثناء التهذيب، ونوادر أملتها القريحة أبان الترتيب».

يقول د. المنجد[١]:

وهذّبه عَبْد القادر بدران، فحذف منه الأسانيد، وحذف كثيراً من الأخبار فيه، وأثبت ما وافق نزعته الدينية ومذهبه الحنبلي، وقد لاحظنا أثناء مقايستنا هذا المهذب بالأصل أن الشيخ بدران كان كثيراً ما يحذف كلمات لم يفهمها ويثبت بدلاً منها كلمات أخرى. ولا يمكن الاعتماد على هذا المهذب في الدراسات العلمية لأنه بعيد عن الأصل في أشياء كثيرة».

أما الأستاذ مُحَمَّد أَحْمَد دهمان فيقول[١]:

«وفي سنة ١٣٢٩هـ قصد أستاذنا المرحوم الشيخ عَبْد القادر بدران طبع هذا التاريخ فاصطدم بعقبات جمّة، أعظمها كثرة الخطأ في النسختين المخطوطتين بالمكتبة الظاهرية بدمشق، فعمد إلى اختصاره وتهذيبه ليبتعد عن الخطأ الذي فيهما وليحذف ما لم يظهر له معناه ولم يهتد إلى صوابه».

ومع ذلك فلم يسلم ما طبعه منه من الخطأ الكثير والتحريف... أما الدكتور شكري فيصل[٢] فاعتبر أنه: أيا كان الرأي في عمل الشيخ بدران رحمه الله، فقد كان خطوة رائدة إذا ما تمثلنا الظروف الثقافية التي وجد فيها، والأوضاع الاجتماعية التي كانت من حوله، وبخاصة حين تقرأ المقدمات التي كتبها للأجزاء الخمسة والخواتيم، والتي تصور معاناته وخصوماته، وتجسد إصراره وعزمه.

ولقد كان عمل الأستاذ أَحْمَد عبيد في الجزءين السادس والسابع تداركاً واضحاً للكثير من مثل الذي وقع للمرحوم الشيخ بدران وتجاوزاً للثغرات التي عثر بها.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت استعانتنا به ورجوعنا إليه محدوداً جداً رغم اعترافنا بفضل وقيمة هذا المهذب، وعمل هذا الرجل حيث كان له السبق في أن عَرَّفَ الناس بكتاب تاريخ دمشق، وأدرك الباحثون منهم قيمته في إغناء بحوثهم.

٢ ـ عملنا في التحقيق:

نقل الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمته القيّمة ـ والتي اعتبرناها نهجاً لنا

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية مج ٢، ج ١/ ٨٤.

(٢) مجلة المجمع العلمي ج ٢٨/ ١٤٣.

(٣) تاريخ دمشق المطبوعة عاصم ـ عائذ ـ المقدمة ص ١٠.

أضاء لنا الولوج إلى عالم تاريخ ابن عساكر ـ للمجلدة الأولى قال:

«وضعت اللجنة التي ألّفها المجمع العلمي لوضع قواعد عامة تتبع في تحقيق مجلدات التاريخ أُسساً ينبغي اتباعها فرأت أن الغاية من تحقيق الكتاب هو تقديم نص صحيح، ولذلك يجب:

١ ـ أن يعني باختلاف روايات النسخ وأن يثبت ما صح منها.

٢ ـ وأن يوجز في التعليق كي لا يثقل النص بتعليقات طوال.

٣ ـ وأن تضبط الأعلام.

٤ ـ وأن تفسر الألفاظ الغامضة.

٥ ـ وأن يصرف النظر عن تخريج الأحاديث.

٦ ـ وأن يسمح بوضع النقطة والنقطتين، والفاصلة، وإشارات الاستفهام والتعجب، لتوضيح النص.

٧ ـ وأن تثبت الآيات القرآنية بين قوسين مزهرين.

٨ ـ وأن ترقم سطور النص.

وقد رأينا في هذه القواعد نهجاً علمياً يقترن بالتاريخ ـ إذا ما استوعبت هذه القواعد وطبقت ـ إلى المستوى الذي أراده مصنفه، من خلال تقديمه خالياً من التشويه والتصحيف والتحريف، إلى الوصول جديّاً إلى نص صحيح واضح.

فحرصنا إلى احترام هذه القواعد العامة غير أننا كنا نضطر إلى تجاوزها أحياناً لضرورة.

ولما كان هدفنا في تحقيق الكتاب هو تقديم نص صحيح واضح وسليم، خال من التحريف فقد قمت بما يلي:

١ ـ مقابلة الأصول ومعارضتها وإثبات ما أراه صواباً وكنت أشير إلى مختلف الفروق في الهامش.

٢ ـ ضبط النص وخاصة أسماء الأعلام، وألفاظاً تحتاج إلى ضبط للإيضاح.

٣ ـ في حال اختلاف الروايات كنت أستعين بالمصادر، والموارد التي أخذ منها

ابن عساكر وأثبت ما ورد فيها، أو أعارضها بمصادر أخرى وردت فيها رواية ما، وأثبت ما أراه صواباً محاولاً تقديم الرواية الصحيحة من حيث الضبط، والخالية من التشويه والتصحيف والتحريف.

٤ ـ كنت أضبط الأسماء وأترجم أحياناً لبعض الأعلام وأشير أحياناً إلى موضع ترجمته تأكيداً على صحة الاسم ونسبته ونسبه.

٥ ـ كنت ألجأ أحياناً إلى تخريج بعض الأحاديث ـ واختصرت في ذلك كثيراً ـ وكان القصد التوضيح خاصة إذا كانت الحاجة إلى استكمال نص أو رواية.

٦ ـ قمت بإدخال التعليقات على هوامش النسخ الخطية في المتن وذلك ضمن معكوفتين [ ].

٧ ـ أثبتّ الآيات بين قوسين مُزْهَرَين بعد ضبطها وتخريجها.

٨ ـ قمت بتنسيب الشعر وضبطه ما استطعت.

٩ ـ الاستعانة بمعاجم اللغة (اللسان ـ القاموس المحيط ـ تاج العروس) وكتب غريب الحديث (النهاية لابن الأثير ـ والفائق للزمخشري ـ وغريب الحديث لأبي عبيد الهروي) في شرح وضبط ما عارضني من ألفاظ غريبة وضبط ما ورد من شعر.

١٠ ـ أثبتّ الرسم المألوف للناس في الأعلام، وتركنا الرسم القديم: كسليمن، كتبت سليمان، وإسماعيل كتبت إسماعيل إلى آخره.

١١ ـ قمت باستدراك عناوين فرعية، ووضعتهما بين معكوفتين، للإيضاح.

١٢ ـ خلال معارضة الأصول مع بعضها البعض، وخلال معارضة الأصول مع مصادر التي أخذ عنها ابن عساكر كنت أحياناً ألجأ إلى زيادة في المتن فأضعها بين معكوفتين، وأحياناً ألجأ إلى حذف عبارة في الأصل قد تكون مضطربة والمعنى مشوّش وأثبت مكانها نص العبارة الصواب، في هذه الحال كنت أثبت نص العبارة المضطربة في الحاشية.

١٣ ـ لم أجنح في تعليقاتي إلى التطويل، إلاّ عند الضرورة حتى أنني تركت الإشارة كثيراً إلى بعض التصحيف، حتى لا أثقل النص، والكتاب كما نرى واسع بما فيه الكفاية.

١٤ ـ قمت بوضع النقطة والنقطتين، والفاصلة، وإشارات الاستفهام والتعجّب لتوضيح النص.

١٥ ـ في تعليقاتي في الحاشية كنت أدعم ما أحشّيه بالمصدر الذي أخذت عنه والذي رجعت إليه وتجنبت تخريج الأحاديث خوفاً من اتساع الكتاب.

كانت هذه الخطوات، القواعد، التي رسمناها وقررناها للبدء بتحقيق كتاب تاريخ مدينة دمشق مسترشدين بالملاحظات القيّمة التي سطّرها الأستاذان الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمته للمجلدة الأولى، والدكتور شكري فيصل في مقدمته للجزء ـ عاصم ـ عائذ.

واستكملنا إعداد العدة حيث وفّرنا القسم الكبير من المصادر التي نحتاج إليها، وليس هذا بالأمر البسيط فالكتاب يمتد في الزمان في قرون ما قبل التاريخ إلى أيام مؤلفه، إلى أواسط القرن السادس الهجري.

وتتشعب مواضيعه وتتفرع لتشمل فروعاً كثيرة ومتنوعة في عالم المعرفة من دين وشريعة وثقافة وفكر وأدب وشعر وغير ذلك.

وانطلقنا بالمشروع ننتقل به من مرحلة التخطيط والإعداد ـ بعد توفير كل متطلباته ـ إلى مرحلة التنفيذ والعمل، مع دار العرب والآلام ـ دار الفكر، وكنا ندرك أهمية العمل الذي نُقدم عليه وخطورته، وندرك المصاعب والعقبات التي تواجهنا لسعة الكتاب وغزارة مادته من جهة ومن جهة أخرى لم يستطع الحافظ أن ينقح كتابه وينظر فيه، وكان ينقل بعض الأخبار ويدع العهدة على من نقلها عنه، وقد عبّر الحافظ أَبُو القَاسِم بن عساكر بوضوح عن قلقه فيما يكون قد علق في مؤَلَّفِه من شوائب يقول[1]:

«هذا مبلغ علمي وغاية جهدي على ما وقع إليّ أو ثبت عندي، فمن وقف فيه على تقصير أو خلل، أو عثر فيه على تغيير أو زلل، فليعذر أخاه في ذلك متطوّلاً، وليُصلح منه ما يحتاج إلى إصلاح متفضلاً، فالتقصير من أوصاف البشرية، وليست الإحاطة بالعلم إلاّ لباريء البريّة، فهو الذي وسع كل شيء علماً، وأحصى مخلوقاته عيناً واسماً، ومع ذلك فمن ذكرت أقلّ ممن أهملت، وما أصبت في ذكره أكثر مما أغفلت».

---

(١) تاريخ ابن عساكر، الجزء الأول ـ المقدمة.

ولم نفاجأ بالمتاعب، وكنا قد عقدنا العزم، واتكلنا على الله وبدأ مشوارنا مع تاريخ مدينة دمشق، وهو كما يقول الذهبي في سير الأعلام(٢): في ثمان مئة جزء، قلت: والجزء عشرون ورقة، فيكون ستة عشر ألف ورقة».

ومع بداية العمل وانطلاقته، كنا كلما نتجاوز عقبة تظهر عقبات، وكلما نحلُّ مشكلة تبرز مشكلات، فَصُدِمْنَا لضخامة الثغرات والأخطاء وتبين لنا كم هي الأصول التي بين أيدينا سقيمة، وأنها لا تصلح علمياً للتحقيق، وهذا ما زاد علينا العبء، وأثقل علينا الحمل خاصة وأن هدفنا الكبير، وغايتنا وأملنا أن نصل إلى نص سليم صحيح واضح بعيد عن التصحيف والتحريف والتشويه وأن نجعله كما أراد ابن عساكر.

إن بروز هذه المشاكل لم يفتّ عضدنا بل أعطانا التصميم على متابعة العمل والمثابرة عليه حيث وضعنا نصب عيننا أن نخرج كتاب تاريخ دمشق إلى النور، وأكّدنا على التزامنا أن يكون تاريخ دمشق بين أيدي الناس، لما يمثله من ثروة فكرية وثقافية وحضارية، ويزيد من أهيمته أن الحافظ وخلال عملية جمعه مواد تاريخه أخذ كثيراً من النصوص من مصادر كانت مكتوبة وموجودة في عصره، وقد أتلف أو ضَاعَ قسم كبير من هذه النصوص المكتوبة وتآليفها، وبقيت لنا محفوظة في تاريخ مدينة دمشق.

وسأضع أمام القارىء الكريم نموذجاً لما أعانيه من عقبات على سبيل المثال لا الحصر.

(٢) سير الأعلام: ٢٠/٥٦.

السطر الثالث: يتحدث الصواب سجدت.

السطر السادس: نقس أخلّ بالمعنى: إذا رأى ما يفرح به أو [بشّر بما] يسّره.

السطر الثامن: أَبُو الحسن بن قيس الصواب: بن قبيس.

السطر العاشر: محمَّد بن يَحْيَىٰ الصراف، الصواب: الصولي.

أَبُو يعقوب، الصواب: أَبُو الغوث.

السطر الثاني عشر: المرزقي، الصواب المزرفي.

السطر الرابع عشر: ابن دار، الصواب: يزداد.

السطر الخامس عشر: ضرب، الصواب: صرت.

السطر الثاني والعشرون: فقالا، الصواب: فقال.

قال أحب فهو مبارك، الصواب: أنا أخف نهوضاً منك.

السطر الرابع والعشرون: بجهتين الصواب: بخمسين.

السطر السابع والعشرون: أحْمَد بن محمَّد بن روق، والصواب: محمَّد بن أحْمَد بن رزق.

السطر الحادي والثلاثون: الهمداني، والصواب: الهمذاني.

السطر الثالث والثلاثون: لعل، والصواب: نعلي.

فأتيت به، والصواب: فأتيت بابه يا شيخ بعلبك، والصواب: نعليك.

وبعد، فإن خطانا الآن قد ثبتت، وأقدامنا قد ترسخت، وتآلفنا مع المشاكل، وتحاببنا مع العقبات، وأحببنا الكتاب فتعلقنا به إلى حدود العشق. فلم يعد بإمكاننا أن نبتعد عنه، فإننا نمضي معاً يومياً ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة تضارع ما أصابه من أخطاء النساخ وسهوهم وأهوائهم وميولهم.

لقد بذلنا جهداً صادقاً، نرجو أن يكون مفيداً. فكتابٌ كتاريخ مدينة دمشق، هذه الثروة الواسعة تتضاءل دونه الجهود، وتصغر دونه الهمم ـ وقد صَغُرت ـ كتاب واسع وغزير المادة، شامل، كثير الاستدراك والاستطراد في الرواية.

دعـــوة ورجـــاء:

مهما بلغت الجهود وتكثّفت، ومهما استقام العمل، ومهما كان التصدي عميقاً، وهذا كله كان دأبنا وهاجسنا، ومع ذلك فإن الحمل ثقيل، وقد ناء بحمله الكبار الكبار، وفيما قدمناه كنا صادقين، ولكنّ ما صادفنا كان هائلاً وما استعسر علينا كثير، وهذا التاريخ الثروة جدير بتمام الرعاية وشمولية الاهتمام، لذلك ندعو ـ بل نرجو ـ من الباحثين والدارسين في شتّى حقول الثقافة أن يتفضلوا مشكورين بإبداء ملاحظاتهم، وإصلاح ما يرد من خلل أو خطأ، وإلى إعطائنا النصح والمشورة لتدارك ما وقعنا به من تقصير أو خطأ لاستدراكه، وكم نحن بحاجة إلى نصح مثل هؤلاء العاملين في خدمة

تراثنا، والمساهمين في إحياء أمّهات كتب التراث والتي لا زالت مخزونة في مكتبات العالم كله والتي تتناول مختلف فروع المعرفة والثقافة، ومختلف الفنون والعلوم.

ومنها ـ بل من أهمها ـ كتاب تاريخ دمشق، حيث نقوم باستكمال تحضيره لتقديمه ووضعه بين أيدي القراء الكرام في مختلف الأقطار العربية والإسلامية.

ونحن في سباق مع الوقت، واختصار الزمن، ونأمل أن يتتابع ظهور الكتاب حيث ستتسارع مسيرة تقديم الأجزاء لأن المراحل المهمة في تحقيقه قد أنجزت، ووضعت في مسارها، وطريقها للتنفيذ.

ونقوم بإعداد فهارس شاملة تفصيلية تتناول:

١ ـ فهرس الآيات.

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية مرتبة حسب أوائلها وتتضمن:

أ ـ الأحاديث القولية.

ب ـ الأحاديث الفعلية.

ج ـ النواهي والأوامر.

٣ ـ فهرس الأعلام.

٤ ـ فهرس شيوخ ابن عساكر وتتضمن:

أ ـ شيوخ ابن عساكر الذين تلقى عنهم.

ب ـ الشيوخ الذين قرأ خطوطهم.

ج ـ الشيوخ الذين كتبوا إليه.

٥ ـ فهرس رجال السند.

٦ ـ فهرس الأحاديث القدسية.

٧ ـ فهرس الكتب الواردة والوثائق والرسائل.

٨ ـ فهرس الشعر والرجز.

٩ ـ فهرس الأماكن والبقاع والمواقع والجبال والأنهار والوديان.

١٠ ـ فهرس الأقوام والأمم والقبائل.

١١ ـ فهرس الأديان والفرق.

١٢ ـ فهرس الأشياء.

١٣ ـ فهرس الآثار.
١٤ ـ فهرس الأمثال.
١٥ ـ فهرس الوقائع والغزوات وأيام العرب.
١٦ ـ فهرس الحيوانات.
١٧ ـ فهرس الموضوعات (التراجم).

شكـــر:

لم يكن بالإمكان المتابعة في تحقيق هذا الكتاب لو لم ينعم العمل بالرعاية الدائمة والمستمرة، والاهتمام الكبير من السادة مسؤولي مؤسسة دار الفكر - بيروت والذين اعتبروا هذا العمل في أولويات اهتمامهم بل في رأس اهتماماتهم وهذا كان له الفضل الأكبر في دفع العمل، حيث أنهم لم يهدأوا في توفير ما من شأنه أن يسهم في نمو العمل وتطوره، ولم يبخلوا في توفير كل الإمكانيات، وقد كان يدرك تمام الإدراك أهمية هذا الكتاب والذي يعتبر أضخم مؤلَّف من حيث حجمه ومضمونه وتنوع موضوعاته وانتشاره على مدى زمني طويل وعلى مساحة جغرافية واسعة تطال العالم العربي والإسلامي.

وبعد.

لقد بذلتُ جهدي وطاقتي صادقاً في خدمة هذا الكتاب الجليل، الخطير الشأن ولا زلتُ.

رجائي إلى الله أن يلهمني الصبر، ويمنحني القوة على المثابرة ومزيداً منها.

وأسأل الله تعالى راجياً أن يعصمني من الكبر والزهو، وأن يأخذ بيدي لمزيد من طاعته، وأن يباعد ما بيني وبين الأهواء، وأن يمدّني بالعون على تحقيق ما أتطلع إليه، وما أطمح إلى الوصول بتاريخ دمشق إلى شاطىء الأمان، ووضعه بين أيدي القرّاء الكرام، نصاً صحيحاً خالياً من الشوائب.

أسأل الله أن يجعل عملي متقبّلاً وأن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يوفقنا جميعاً لما يرضيه عنا.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

المحقق
ص ب ٦١٨٩
الرياض ١١٤٤٢

١٠ محرم ١٤١٦ هـ

٨ حزيران (يونيه) ١٩٩٥م

الرموز المعتمدة في تحقيق الكتاب

ـ النسخة الأم وهي النسخة السليمانية أشرنا إليها بكلمة «الأصل» في الغالب.
ـ النسخة اليوسفية «م»
ـ نسخة الخزانة العامّة بالرّباط «خع»
ـ نسخة أحمد الثالث «د»
ـ النسخة التونسيّة «ت»
ـ النسخة الأزهريّة «ز»
ـ مختصر تاريخ دمشق أشرنا إليه أحياناً بالمختصر.
ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير أشرنا إليه بتهذيب ابن عساكر.
ـ الأجزاء المطبوعة من تاريخ دمشق التي نشرها المجمع العلمي بدمشق أشرنا إليها بكلمة المطبوعة.

﴿ ﴾ آية قرآنية
« » حديث نبوي شريف
[ ] زيادات على الأصل

ـ الأرقام الصغيرة بين معقوفتين تشير إلى تسلسل أرقام الأحاديث.
ـ الأرقام التي تسبق أسماء التراجم تشير إلى تسلسل أرقام المترجم لهم.

صورة من النسخة التونسية

صورة من نسخة دار الكتب الوطنية تونس

نسخة مصورة عن مكتبة أحمد الثالث

نسخة مصورة عن مكتبة أحمد الثالث

صورة عن مخطوطة النسخة الظاهرية

صورة عن مخطوطة النسخة الظاهرية

صورة أخرى عن النسخة الظاهرية

صورة من النسخة المغربية

صورة من النسخة المغربية

صورة من نسخة الأزهر

صورة من نسخة الأزهر

صورة من النسخة التونسية

صورة من النسخة التونسية